

محمد محيي الدين المشرفي

إفريقيا الشمالية في العصر القديم

دار الكتب العربية

إفريقيا الشمالية

في العصر القديم

تأليف

محمد محيي الدين المشرفي

مدير معهد الدراسات والأبحاث للتعريب

الطبعة الرابعة 1389 - 1969

محققة ومراجعة ومزيدة

دار الكتب العربية

الإهداء

إلى المغفور له - والدي - أهدي هذا الكتاب، اعترافاً له ببعض ما أسدى إليّ من الجميل، في حياته القصيرة التي ضرب بها لأبنائه البررة مثلاً عالياً في الصدق والإخلاص والسعي من وراء المصلحة العامة.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذه فصول تشتمل على تاريخ افريقيا الشمالية من العصر القديم الى الفتح الإسلامي ، لم نهدف بكتابتها الى وضع مؤلف علمي مفصّل ؛ وإنما غايتنا منها أن نجعل بين أيدي طلبتنا المستنيرين الذين يظهرون اهتماماً خاصاً بدراسة تاريخهم الغابر صفحات تعينهم على فهم الحوادث التاريخية والأزمات السياسية التي طالما تألمت لها هذه البلاد ، راجين أن تفيدهم — في نفس الوقت — ببعض المعلومات التي لا غنى للطالب عنها مما يتعلق بالحالة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية والفنية التي مرت بها افريقيا الشمالية خلال العصور القديمة

وقد اعتمدنا في تحرير هذه الفصول على عدة مراجع عربية وفرنسية ، أهمها كتاب « قرطاجنة في أربعة عصور » للمؤرخ الشهير الاستاذ احمد توفيق المدني الذي امتازت مؤلفاته العديدة في تاريخ المغرب العربي بدقة البحث وحسن الإنتاج ومتانة الأسلوب ؛ وحرصنا على تجميل هذه الفصول ببعض الصور والخرائط زيادة في الإيضاح ، كما ذيلنا كل فصل منها بمطالعة تاريخية مناسبة

فالمؤمل أن ينـــال هذا الكتاب من شبابنا المتعطش كل الرضى ويحمل ذوي الهمم منـــا على العنـــاية ـ أكثر من ذي قبـــل ـ بهذه الحقبة من تاريخنا المجيد ودرسها درساً منظماً أساسه البحث الصحيح والنقد النزيه ، والله تعالى ولي التوفيق وعليه الاعتماد

وجدة في 28 مايو 1949 **محمد محي الدين المشرفي**

الفصل الأول

كلمة في وصف افريقيا الشمالية

موقع البلاد وحدودهـــا ـ تعريفها وتقسيمها السياسي ـ الجبال والسهول ـ المياه ـ الفلاحة والصناعة ـ السكان والمدن ـ الحياة الاقتصادية

تقع افريقيا الشمالية – أو بلاد المغرب كما كان يسميها الأقدمون – في الناحية الشمالية من القارة الافريقية، بين الخط 28 و 37 من خطوط العرض الشمالية كما تقع بين الدرجة 13 غرباً والدرجة 10 شرقاً من خطوط الطول ؛ وتبلغ مساحتها 950,000 كيلومتر مربع ، هذا بغض النظر عن توابعهـــا الصحراوية ، ويتراوح عدد سكانها بين 28 و 30 مليون نسمة على حسب مـــا جاء في الاحصاءات الرسمية ، بحيث نستطيع تقدير كثافة السكان بثلاثين نسمة لكل كيلومتر مربع ، على وجه التقريب ؛ وهو – كما ترى – قدر ضئيل بالنسبة لعرض البلاد المغربية

أما حدودهـــا الطبيعية فهي البحر الأبيض المتوسط من الشرق والشمال ، ومحيط الأطلنتيك من الغرب ؛ اما من جهة

الجنوب فرمال الصحراء المترامية الأطراف تفصل المغرب عن بقية القارة الافريقية

وقد عرفت افريقيا الشمالية منذ أقـــدم العصور بأسماء مختلفة ؛ فاليونان مثلاً ، كانوا يسمونها « ليبيا » في حين أن الرومان كانوا يطلقون عليها كلمة « أفريكا - Africa - ؛ على ان هذا اللفظ انما وضع ـ أول الأمر ـ للمنطقة المعروفة الآن بالقطر التونسي ؛ لكن سرعان ما عم استعمال هذه الكلمة ؛ فأصبح يفهم من لفظة « أفريكا » بلاد المغرب بأسرها وبعد ذلك افتتحها العرب ؛ فعرفت عندهم « بجزيرة المغرب » نظراً لأن البحر يكتنفها من ثلاث جهات ورمال الصحراء من الجهة الرابعة ؛ وأطلقوا بالخصوص كلمة « المغرب الأقصى » عـلى القسم الغربي منها نظراً لبعده عن الجزيرة العربية

وتنقسم هـــذه البلاد العريضة التي تعتبر همزة الوصل بين أروبا وافريقيا السوداء الى أقسام ثلاثة من الناحية السياسية

أولاً – المملكة المغربية – أو المغرب الأقصى – وتبـلغ مساحتها 450,000 كيلومتر مربـع بقطع النظر عن أجزائهـا المغتصبة ؛ وعدد سكانها 14 مليون نسمة ؛ دخلت تحت الحماية الفرنسية سنة 1912 م ونالت استقلالهـا بعد كفاح مرير سنة 1956

ثانياً – المغرب الأوسط ، أو ما يعرف بالجزائر ، وقـع احتلالهـــا منذ سنة 1830م مساحتها 375,000 كيلومتر مربع ؛ وعدد سكانها يزيد قليلاً عـلى 10,000,000 نسمة .



الخريطة الطبيعية والسياسية لافريقيا الشمالية

ثالثاً – الجمهورية التونسية التي تبلغ مساحتها 155,000 كيلومتر مربع وعدد سكانها 4,500,000 دخلت هي الأخرى تحت الحماية الفرنسية سنة 1881 . واعترف باستقلالها سنة 1956 أيضاً

ومما ينبغي الإشارة اليه ان هذين القطرين الأخيرين لم يتخلفا مرة واحدة عن المشاركة في كل الحركات التي غشيت البلاد المغربية ، سواء كانت هذه الحركة اجتماعية أم سياسية؛ وقد أخذا أيضاً حظهما من المدنيات القديمة التي طرأت على هذه البلاد ، في حين ان المغرب الأقصى وان كان حسن الموقع إلا انه ظل منعزلاً عن بقيه الشعوب القديمة ، وذلك بوجود جبال الأطلس المتوسط التي فصلته عن المغربين الأدنى والأوسط من جهة ، ومضيق جبل طارق الذي فصله – من جهة أخرى – عن أروبا

هذا وتخترق بلاد المغرب من أقصاه الى أقصاه سلسلة جبلية عظيمة يعتبرها الجغرافيون جزءاً من جبال « الألب » الأوربية - Alpes – ؛ وتبتدىء تلك الجبال في ساحل البحر الأبيض الشرقي وتنتهي بالساحل الأطلنطي ؛ وهي من المغرب الى المشرق

أولاً – جبال الريف الشمالية الواقعة بالمغرب الأقصى ؛ وتشتمل من جهة على الأطلس الساحلي البالغ ارتفاعه 2,300 متراً في جبال جرجرة (الجزائر) ؛ وعلى جبال « بيتكة » (Bétique) في الأندلس ، من جهة أخرى .

ثانياً ــ الأطلس التلي، وهو عبارة عن سلسلة جبلية أخرى عظيمة تتجه من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ؛ والظاهر أن الأطلس التلي يتصل بجبال الأطلس المتوسط الذي يعتبره علماء الجيولوجيا بمثابة خزّان تذخر فيها كمية عظيمة من الماء عند ذوبان الثلوج ؛ وفيه يقع جبل أبو إيبلان المشهور الذي يبلغ ارتفاعه 3,000 متر أما جبال الأطلس التلي فلا يزيد ارتفاعها بالمغرب الأوسط عن 1975 متراً ؛ ثم انها تنتهي بجبال « خمير » بالجمهورية التونسية ، وهي جبال متوسطة الارتفاع

ثالثاً ــ الأطلس الصحراوي ؛ ويبتدىء أيضاً بالمغرب الأقصى حيث يحمل اسم الأطلس الكبير ، الشامخ بأنفه الى السماء ؛ وفيه جبل « العياشي » الذي يتراوح ارتفاعه بين 3,000 و 4,000 من الأمتار ؛ وهناك أيضاً الأطلس الصغير وفيه جبل « سيروا » ، البركان القديم (3,000 م) ؛ ويمتد الأطلس الصحراوي الى الجمهورية التونسية ، وفيها يعرف ذلك القسم منه بجبال زغوان وتحتوي هذه السلسلة بالمغرب الأوسط على قطع جبلية هامة منها جبال « القصور » وجبال « اولاد نايل » وجبال « الأوراس » التي يتجاوز ارتفاعها 2,300 من الأمتار ؛ وأغلب هذه الجبال تكسوها الغابات وتكللها الثلوج .

هذا وفي بلاد المغرب نجود واسعة ترعى فيها الماشية؛ وتقع غالباً بين جبال الأطلس والسهول الاطلنطية أو بين الاطلس

التلي والاطلس الصحراوي ؛ ويوجد البعض الآخر منها حول المدن التي اشتهرت بتربية الغنم والإبل كمدينتي برشجم وفجيج الواقعتين بالمغرب الأقصى

وهناك سهول فيحاء نجد عدداً منهـــا على ساحلي البحر المحيط والبحر الابيض المتوسط أشهرها سهول شاويـة ودكالة وعبدة بالمغرب الأقصى ؛ أمـــا السهول الواقعة على الساحل الجزائري فهي لا تكاد تذكر لضيقها وقلة عددها في آن واحد والسبب في ذلك يرجع الى وقوع جبال الأطلس الساحلي قريبة جداً من الشاطىء البحري ؛ عـلى انه اذا كانت تلك السهول تمتاز بقلة العدد وعدم الأهمية بحيث لا يمكن استخدامها للزراعة بصورة واسعة النطاق ، فمن المعـــلوم ان من ورائها سلسلة أخرى من السهول تعرف بسهول ماكتة ووهران ومجرى وادي شلف ، وكلها بالقطر الجزائري الشقيق ؛ يُضاف اليها سهل مجردة بتونس؛ وهذه السهول هي في الجملة أعظم أهمية بالنسبة للأولى من النـــاحية التاريخية ، اذ استخدمها الفاتحون ، منذ قديم الزمان ، للتوغل في داخل البلاد وبسط نفوذهم عـــلى أطرافها ومن الملاحظ أنهـــا لا تزال حتى اليوم تستخدم لنفس الغرض المذكور ، كما استخدمها الفـاتحون لوضع طرق المواصلات الرابطة بين أطراف البلاد

هذا وهنـاك سهول أخرى واسعة الارجـاء حول مدينتي فاس ومكناس يستعملها الملاكون للزراعة وإنتاج أنواع الخضر والفواكه .



جبل « المحصر » بناحية وجدة
ويشتمل على بعض الآثار الرومانية والبربرية

وتختلف نواحي البلاد المغربية من حيث الامطار باختلاف طقسها وبعدها من البحار فهناك نواح غزيره المياه ؛ كثيرة الاودية والآبار كالنواحي الواقعة بين جبال الاطلس المتوسط وساحل الاطلنتيك أو كالناحية الشمالية من الجمهورية التونسية؛ وهنـــاك قسم جاف مثل الجهـات الواقعة من وراء الاطلس المتوسط أو المشرفة منها على رمال الصحراء؛ فليس فيها توازن في الحرارة وليس يوجد فيها من الماء ما يشفي الغليل اذا نحن استثنينا وادي ملويـــة الكبير ووادي شلف ونهر مجردة والسبب في ذلك ان جبال الاطلس المتوسط تقع سداً منيعـاً في غرب البلاد ؛ فلا تجد السحب المتصاعدة من المحيط قـدرة على اجتياز قممه العـالية ؛ فتتحول الى ميـاه منهمرة تنصب

بغزارة ؛ فيتسرب بعضها الى جوف الجبل ويسيل البعض الآخر على سفحه

وهذه الأودية والأنهار في بلاد المغرب تنقسم الى ثلاثة أقسام غربية وشمالية وجنوبية فاما الغربية منها فلها أهمية بالغة نظراً لطولها ، وسبب ذلك ان منابعها تبعد كثيراً عن مصباتها ؛ وهذا ما جعل بعضها صالحاً في الجملة للملاحة كوادي سبو أو لتوليد الكهرباء كوادي أم الربيع بالمغرب الاقصى

الأنهار الشمالية قصيرة بصفة عامة لقرب منابعها من الشاطىء ؛ وأعظم هذه الانهار وادي ملوية (480 كـ. م.) ؛ وقد تكثر مياهه في ابان الربيع عند ذوبان الثلوج ؛ ومنها ايضاً نهر اشلف الجزائري ومجردة التي ينصب ماؤها في الخليج التونسي

أما الأنهار الجنوبية فهي قليلة الفائدة ، تتجه الى الصحراء ، فتتغيب تحت رمالها الذهبية المترامية الأطراف أو تنصب في بحيرات منبثة هنا وهناك داخل البلاد كبحيرة الجريد الواقعة في جنوب تونس

ثم ان الكلام على توزيع المياه بالمغرب يحملنا طبعاً على الحديث عن امكانية هذه الأراضي المغربية من حيث استصلاحها للانتاج الزراعي ؛ والذي يجب اثباته ، قبل كل شيء ، هو ان هذه الأراضي فلاحية بالطبع ؛ فقد كانت منذ قديم الزمن تنتج الحبوب بكثرة والفواكه والخضر والأزهار ؛ وكانت

روما تعتمد عليهـــا في تموين سكانها وامدادهم بالمواد الغذائية اللازمة ؛ وهذه الأرض كانت ولا تزال صالحة لتربية المواشي والدواب المسخرة للركوب أو المستعملة في الفـلاحة ؛ أضف الى هذا انها غنية بالمواد الأولية كالصوف والجلد والمواد المعدنية مثـل الفسفاط والنفط والنحـاس والذهب والفضة والرصاص والفحم الحجري

وما قيل في الفلاحة يقـــال كذلك في الصناعة المغربية ؛ نعم ، ان سكان المغرب لا يقتصرون على الفـــلاحة ولكنهم يتعاطون — طلباً للرزق — كل الحرف كنسج الأقمشة الصوفية وغيرهـــا وصناعة الأواني الطينية وصنع الآلات الحديدية والخشبية والمواد البنائية الى غير ذلك من الصنائع التي ترتكز عليها حياة البلاد الاقتصادية

ومن حيث السكنى ونظام المعيشة نستطيع القول بأن سكان المغرب ينقسمون، بطبيعة الحال ، الى بدويين ومدنيين؛ وان كان عدد أهل البادية يفوق بكثير عدد أهل المدن أما القاطنون فيالبوادي فيشتغلون بزراعة الأرض وتربية المواشي؛ وغني عن البيان ان حياة السكان موقوفة عليهم وذلك لأن البلاد فلاحية بالطبع ، كما أسلفنا ؛ والفلاحة كالصناعة قوام الحياة في كل بلد هو في طريق النموّ ؛ أما أهل المدن فيميلون بنوع خاص، الى التجارة والصناعة والمهن العقلية التي يزاولونها في مختلف الادارات والدواوين .

ومدن المغرب عديدة أهمها من الوجهة التاريخية بالمغرب الأقصى فاس، عاصمة العلم والعرفان التي أسست سنة 192 هـ؛ فقصدها عدد وافر من أهـالي الاندلس والقيروان ؛ ولم تزل تعظم وتتسع منذ ذلك الحين . اما السر في ذلك النمو العجيب فيرجع من غير شك الى موقـــع هذه المدينة في مفرق الطرق المؤدية، من جهة ، الى طنجـــة وساحـــل الاطلنطيك والجنوب المراكشي ، ومن جهة أخرى ، الى تلمسان والقيروان عن طريق ممر تازة؛ ثم نذكر من بـين مـــدن المغرب الأقصى مراكش الحمراء – مهد الدولة المرابطية – وسبتة وطنجة، وقد لعبت كل منهـا دوراً خطيراً في عهد الوندال وأيام الدولة الاسلامية الزاهرة



اما مدن المغرب الأوسط فنذكر من بينهـــا تلمسان (Pomaria) والجزائر (Icozium) العاصمتين الرومانيتين الشهيرتـين ، وقرطاجنة (Carthaga) في المغرب الادنى ، ذات التاريخ المجيد ؛ ثم القيروان عـاصمة الاسلام الأولى بهذه

الديار ؛ وقد أسست على يد عقبة بن نافع الفهري الذي اتخذها مقراً لقيادته العسكرية وجعل منها مركزاً للديانة الاسلامية .

أما مدن المغرب الحديثة أو الشبيهة بالحديثة فهي من الغرب إلى الشرق الرباط ، العاصمة الادارية للمغرب الأقصى والدار البيضاء ، العاصمة التجارية الكبرى [1] ثم وهران ، الميناء التجاري الجزائري المشهور ، فمدينة قسنطينة ذات المناظر الطبيعية الرائعة والماضي المجيد ؛ ثم تونس .

وقد كانت معظم هذه المدن القديمة تعيش في الماضي السحيق بمعزل عن بقية البلاد ، ولم تكن تشارك ـ على الاصح ـ في حياتها المادية الا مشاركة ضئيلة ؛ والسبب في ذلك يرجع ، على حد تعبير المؤرخين أنفسهم ، الى تعذر أسباب المواصلة في الزمان القديم ، فالمغرب الأقصى ـ مثلاً ـ وان كان في استطاعته أن يلعب دوراً مهماً في تاريخ الأمم المتمدنة القديمة ـ نظراً لحسن موقعه بالنسبة للبلاد الأوربية ويشارك بنوع خاص في الحياة الاقتصادية المغربية ـ إلا انه ظل منعزلاً عن تلك الحياة ، بعيداً عنها لا يشارك فيها إلا بمقدار والعلة في هذه الظاهرة الاقتصادية الغريبة تعود إلى وجود المغرب الأقصى محصوراً بين جبال الأطلس والصحراء والأندلس ، بحيث يمكن اعتباره انه كان مفصولاً من الناحية

---

(١) ليس من البعيد ، عقب الحرب العالمية الثانية ان تلعب مدينة الدار البيضاء دوراً خطيراً في حياة المغرب الاقتصادية نظراً لموقعها المناسب على شاطىء الاطلنتيق اي بين افريقيا وامريكا .

الجغرافية عن بقية المغرب من جهة والقارة الأوربية من جهة أخرى ؛ فأدت به هذه الحالة الجغرافية الخــاصة الى العزلة والانكماش على نفسه



كتلة من الصخور والأحجار بالقرب من نعيمة (ناحيـــة وجدة) تمثـــل طائفة من المدعوين في طريقهم الى وليمة عرس (La Noce Pétrifée)

ولقد لعبت جبال الأطلس بنوع خاص دوراً مهماً في حياة المغرب سواء من النـاحية الاقتصادية ، أم من النـــاحية السياسية ؛ حتى ان الرومان – رغم مهارتهم – لم يتمكنوا من ربط العلاقات ربطاً متواصلاً بين منطقتي طنجة وتلمسان؛ وذلك راجع كله الى وقوع جبال الأطلس سداً منيعاً في وسط البلاد . وهكذا ستلعب تلك الجبال ، مرة أخرى ، دورها

المعتاد ـ على اثر انسحاب العبيديين من المغرب ـ فتحول ، أي جبال الأطلس نفسها ، دون رغبة بني هلال الرامية الى اقتحام المغرب الأقصى والاستيلاء عليه

أما اليوم فقد قُضي على الحواجز الطبيعية ، وكثرت الطرق في البلاد مخترقة اياها من الشرق الى الغرب وبالعكس ؛ وتعددت السكك الحديدية العريضة وانتشر الأمن في جميع أنحاء هذه البلاد فلا شك من ان ابناءها ـ وقد توفرت لديهم أسباب العمل المثمر ـ سيقطعون بها شيئاً فشيئاً مراحل بعيدة من طريق التقدم المادي والازدهار الاقتصادي والاجتماعي

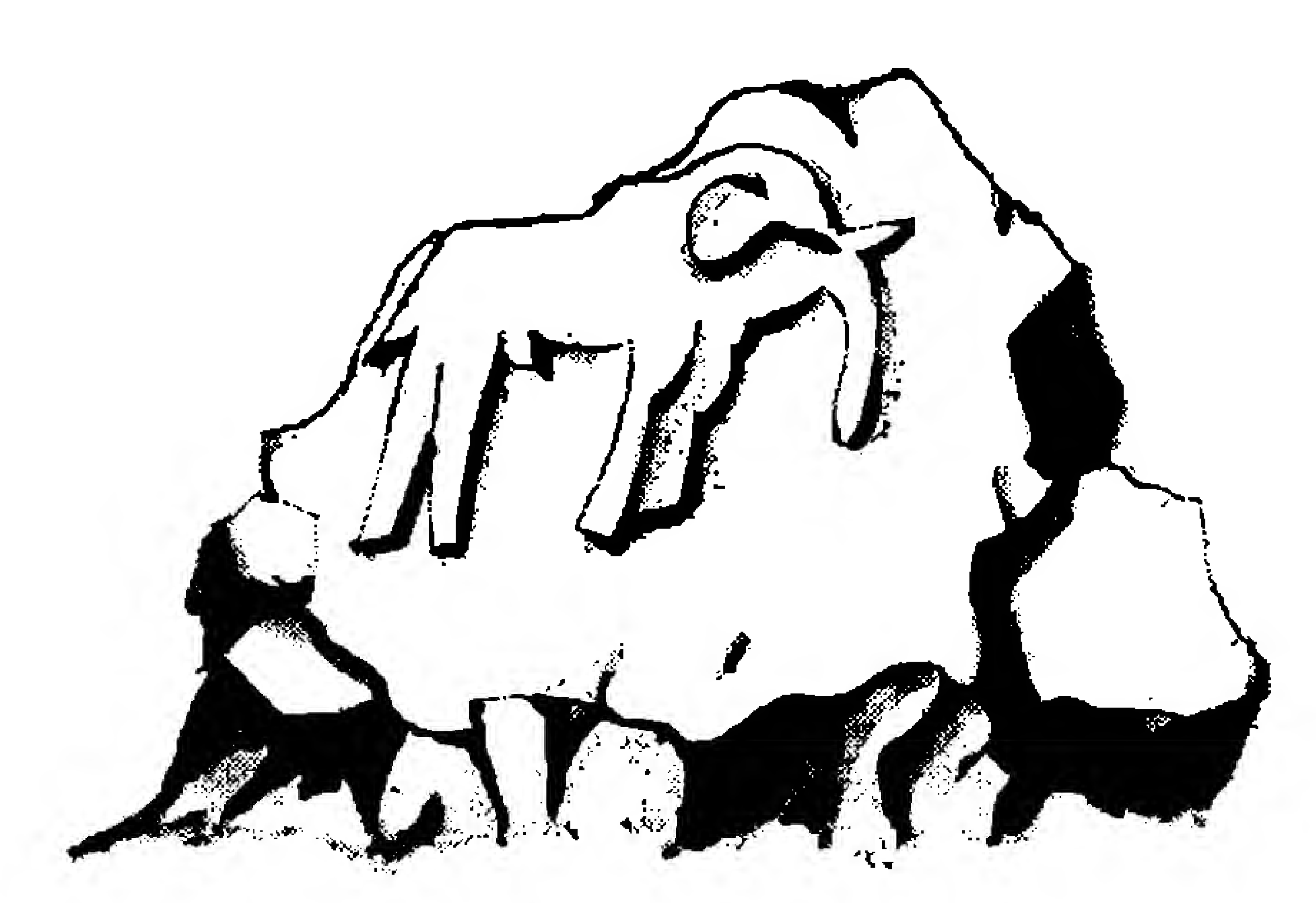
الفصل الثاني

سكان افريقيا الشمالية الأقدمون

صورة البلاد القديمة ـ المغرب في العصر الحجري ـ سكان المغرب الأقدمون ـ صنوف البربر ومميزاتهم ـ حياتهم الادبية والفنية ـ القبائل البربرية الشهيرة

يخبرنا علماء الجغرافيا والجيولوجيا ان شكل البلاد المغربية في أيامنا هذه مخالف لما كانت عليه في الزمن القديم ، بمعنى ان افريقيا الشمالية كانت متصلة باسبانيا من الناحية الشمالية ، بحيث لم يكن هناك وجود لبوغاز جبل طارق؛ وكان البحر المحيط ـ على حد تعبير المؤرخين المذكورين ـ ممتداً الى ناحية تازة ، بل الى مصب نهر ملوية ؛ ويعللون هذه الأقوال بأنهم عثروا في تلك النواحي على بقايا حيوانات لا تعيش الا في البحر .

والواقع انه ليس لدينـــا في الوقت الحاضر معلومات تاريخيـــة مفصلة عن احوال البلاد في العصور القديمة ، بل نستطيـع أن نقول ان معلوماتنا عن الشمال الافريقي في الزمن الذي يقع قبل التاريخ ضئيلة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، وذلك لعدم تدوين أخبار السلف . على ان طائفة من الباحثين عثروا أثناء تجولاتهم الاستطلاعية العلمية في هـــذه البـــلاد على بعض الأدوات الحجـرية والصخور المنقوشة التي تبرهن بكيفية ثابتة على أن أهـــل العصر الحجري - وهم،



صخرة منقوشة تمثل فيـــلا عثر عليها بناحية فجيـج وهي مـن نقش سكان المغرب الأولـين .

سكان المغرب الأولـــين - كانوا يتمتعون بحضارة بسيطة ؛ واستنتج علماء الجيولوجيا من أبحاثهم حول الحجارة المذكورة معلومات تتعلق بأحـــوال معيشة هؤلاء القوم الأولين الذين

أصبحنا نعلم أشياء عن عوائدهم ونظمهم الاجتماعية من ذلك ان أهل العصر الحجري كانوا يسكنون الكهوف ويقتاتون من لحوم الحيوانات الكاسرة التي كانوا يتغلبون عليها فلما تمدنوا قليلاً اتخذوا آلات من عظام تلك الحيوانات وملابس من جلودها ؛ ثم جعلوا ينضجون مأكولاتهم على النار التي كانوا يعتبرونها ـ أول الأمر ـ خطراً داهماً على حياتهم

وبعد حقبة طويلة من الزمن جعل الشعور الديني يتسرب قليلاً الى صدورهم ، في شيء من الغموض والابهام، فنصبوا اذ ذاك في بعض الأماكن صخوراً عظيمة يعبدونها من دون الله كالتي تشاهد اليوم في ناحية بني مطير وبني ازناسن بالمغرب الأقصى ، أو كالتي توجد حتى الآن في شبه جزيرة بريطانية الفرنسية والمعبر عنها بكلمتي (Dolmens et Menhirs).

أما فيما يرجع لحقيقة سكان المغرب الاولين فقد اجمع المؤرخون على بكرة أبيهم ان العنصر الاول الذي استوطن هذه البلاد يتألف من البربر، وفي أصل هذه الكلمة يقول عبد الرحمن بن خلدون « ان العرب لما وفدوا على هذه البلاد وسمعوا لهجة أهلها الغريبة صاحوا قائلين ما هذه البربرة ، يريدون الرطانة ؛ فسموا بالبربر » ويعتقد الم البارتيني انها مأخوذة من كلمة « بارباري » اللاتينية التي كان الرومان يطلقونها على كافة الشعوب القديمة باستثناء اليونان والرومان .

وكيفما كان الامر فقد اجتهد المؤرخون في اثبات وطن البربر الاصلي غير ان آراءهم في هذا الباب ظلت متباينة فمن قائل انهم جاءوا من أوربا ؛ ومن زاعم انهم قدموا من الصحراء والبلاد العربية ؛ ومن جملة هؤلاء فيلسوف المؤرخين عبد الرحمن بن خلدون الذي يقول : « ان هؤلاء البربر قدموا من جنوب جزيرة العرب وان جدهم الأول يدعى مازيغ ». وهي نتيجة مقبولة رجحها علماء كثيرون بحجة ان الشبه موجود بين الساميين وبرابرة افريقيا الشمالية لا فيما يتعلق بالبنية فحسب بل فيما يخص اللغة ايضاً ؛ في حين انه لا سبيل الى اثبات الشبه المذكور بين البربر من جهة واحدى الامم الاوربيه من جهة أخرى واذن فلا بد من أن يكون البربر قد أتوا الى المغرب من آسيا »؛ فانتشروا في هذه البلاد واستوطنوها الى أن أغار عليها العرب ؛ فتخلوا اذ ذاك عن طباعهم ووثنيتهم وتدينوا بدين الفاتحين وتطبعوا بطباعهم

هذا وينقسم البربر من حيث الخلقة الى صنفين مختلفين فالنوع الاول معروف بلونه الاسمر وشعره الاسود ورأسه المستدير ؛ وهو بارز الخدين ؛ أنفه قصير وجبهته مقوسة وهذه الصفات توجد في أهالي اسبانيا وايطاليا وجنوب فرنسا الغربية .



صخرة عظيمة نصبها أهل العصر الحجري بالمغرب ليعبدوها

أما النوع الثاني الذي ينتسب إليه بالأخص سكان الريف بالمغرب الأقصى وأهالي جبال جرجرة بالمغرب الأوسط (الجزائر) فهو أشقر الشعر ، أزرق العينين ، مستطيل الرأس ، رقيق الانف والشفتين ، مسطح الجبهة وهو أقدم العنصرين في هذه البلاد ـ على حد قول المؤرخين ـ الا انه قليل العدد بالنسبة للنوع الأول الذي هو منتشر في كافة أنحاء الشمال الافريقي

وللبرابرة شيم عالية منها حبهم للوطن والحرية المطلقة التي شبوا عليها منذ نعومة أظفارهم ؛ ومن أجل ذلك تراهم يسعون بكل ما لديهم من وسائل وراء المحافظة على كيان القبيلة وضمان استقلالها. والبربري ـ فضلاً عن ذلك ـ شجاع بالطبع يحب الخوض في ساحات القتال كما انه معروف بالتعصب لقبيلته واهله ومن يدري ؟ فلعل هذا التعصب المتطرف أحياناً كان من بين الأسباب التي عاقت البلاد دون

تحقيق رغبتها والحصول على وحدتها السياسية المنشودة في ذلك العصر القديم ..؟

والبربري ـ بالإضافة الى ما ذكر ـ شديد المحافظة على عوائده الموروثة واخـــلاقه ولغته ؛ وأوضح دليل على ما نزعم ان الرومان ـ وان كانوا قد استعمروا هذه البلاد مدة من الدهر لا تقـــل عن خمسة قرون ـ الا انهم لم يتمكنوا من القضاء على عوائد أهلها ، ولا على لغتهم التي لم تتغير ولم تتبدل عبر القصور مهما الأحداث التي طرأت على البلاد.



رأس شاب بربري
كما يراه نحات قديم

ثم ان البربري نشيط ، لا يعرف للكسل معنى ، يتماطى الزراعة ويشتغل بتربية المواشي ؛ وفي كلتا الحالتين يعيش عيشة بسيطة اذ يكتفي بالقليل من القوت ولا يرتدي الا ملابس الصوف او الوبر ؛ مسكنه بيت من الطين والحجر او خيمة نسجت من الصوف وشعر النياق ؛ أو هو عبارة عن كوخ بسيط جداً يتخذه من القصب وأغصان الشجر الممزوجة بالوحل [1]

(1) قرطاجنة في أربعة عصور لاحمد توفيق المدني ص 14 .

على أن هناك طائفة من البربر تعيش على ساحل البحر أو بالقرب منه قد اختلطوا منذ أقدم العصور بالأجانب الذين كانوا يجوبون البحار ؛ فأخذوا عنهم أشياء من الحضارة القديمة ـ تبعاً لذلك الاختلاط والاحتكاك ـ وتفننوا بعض الشيء في بناء المنازل وصنع الملابس ؛ بل منهم من كان يتعاطى التجارة وفن الصناعة ، لكن أغرب ما في الأمر انهم لم يبرهنوا على مقدرة خاصة في شؤون الملاحة ولا سيما منهم أولئك الذين كانوا يعيشون على ساحل الاطلنتيك ، والمظنون ان السبب في ذلك يرجع الى قلة المرافىء الطبيعية بالساحل المغربي واضطراب البحر الابيض المتوسط بصورة دائمة

أضف الى هذا ان البرابر لا يحبون حياة العزلة والانفراد، بل يعيشون جماعات وقبائل ـ شأن العرب في الجاهلية ـ وتمتاز كل قبيلة باتحاد أفرادها وتعصبهم بعضهم لبعض ، كما كان العرب في القديم ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً

أما مصالح القبيلة فيكلونها دائماً الى رئيس يشترطون فيه عدة مزايا كالشجاعة والقوة ، والكرم والحلم ، وغيرها من الخصال الحميدة التي تجعله أهلاً لذلك المنصب وتمكنه من الدفاع عن مصالح القبيلة الحيوية والمحافظة عليها بكل وسيلة ممكنة. هذا ، ويحسن بنا في نهاية هذا البحث ان نتساءل عما اذا كان للبربر آداب تستحق الدرس والاهتمام كسائر الآداب

العربية والاجنبية ، أو بعبارة أخرى ، فنحن نسأل هل يوجد بين البرابر علماء وفلاسفة وكتاب وأدباء يمثلون اللغة البربرية كأولئك الذين خلد التاريخ أسماءهم لما أتحفونا به من أبحاث أدبية ولغوية وقطع شعرية رائعة ؟ نقول ان المتتبع للحياة الادبية والاجتماعية عند البربر لا يسعه الا ان يعترف



حصاد مغربي

بعدم وجود آداب بربرية بالمعنى الصحيح ، ذلك أن اللهجات البربرية على اختلافها سواء منها الشلحة او الزناتية او المزابية أو الزناقية وغيرها لا يتسع صدرها لقبول الافكار العالية ولا يستطيع المتكلمون بها التعبير عن الحقائق العلمية الدقيقة بتلك اللهجات نعم اهتم البرابر نوعاً ما بالأدب الديني ، فكتبوا فيه ما شاء لهم أن يكتبوا ، ومن جملة مصنفاتهم في هذا الباب كتاب « حميم المفتري » كما انه توجد ترجمة

للقرآن الكريم باللهجة البربرية من وضع المهدي بن تومرت[1]
ومع هذا كله فللبربر ولع خاص بفن الملاحم ، وهي كثيرة الشبه بتلك المقطوعات الأدبية التي كتبت في فرنسا أثنـــاء القرون الوسطى والتي تعـــرف في الأدب الفرنسي « بأغاني الوقائع » (Chansons de Gestes) ، ومن تلك الملاحم البربرية المشهورة قصيدة بالشلحة للصابي [2] وهي عبارة عن ملحمة كتبها الصابي بالحروف العربية ليحدثنا عن قصة شاب طوحت به الاقـــدار حتى نزل الى جهنم ، يبحث فيها عن أبويه ويعمل على ان ينجيهما من عذاب السعير



كوخ بربري بسيط

وهناك أنواع أخرى من الأدب البربري أعظم شهرة من

---

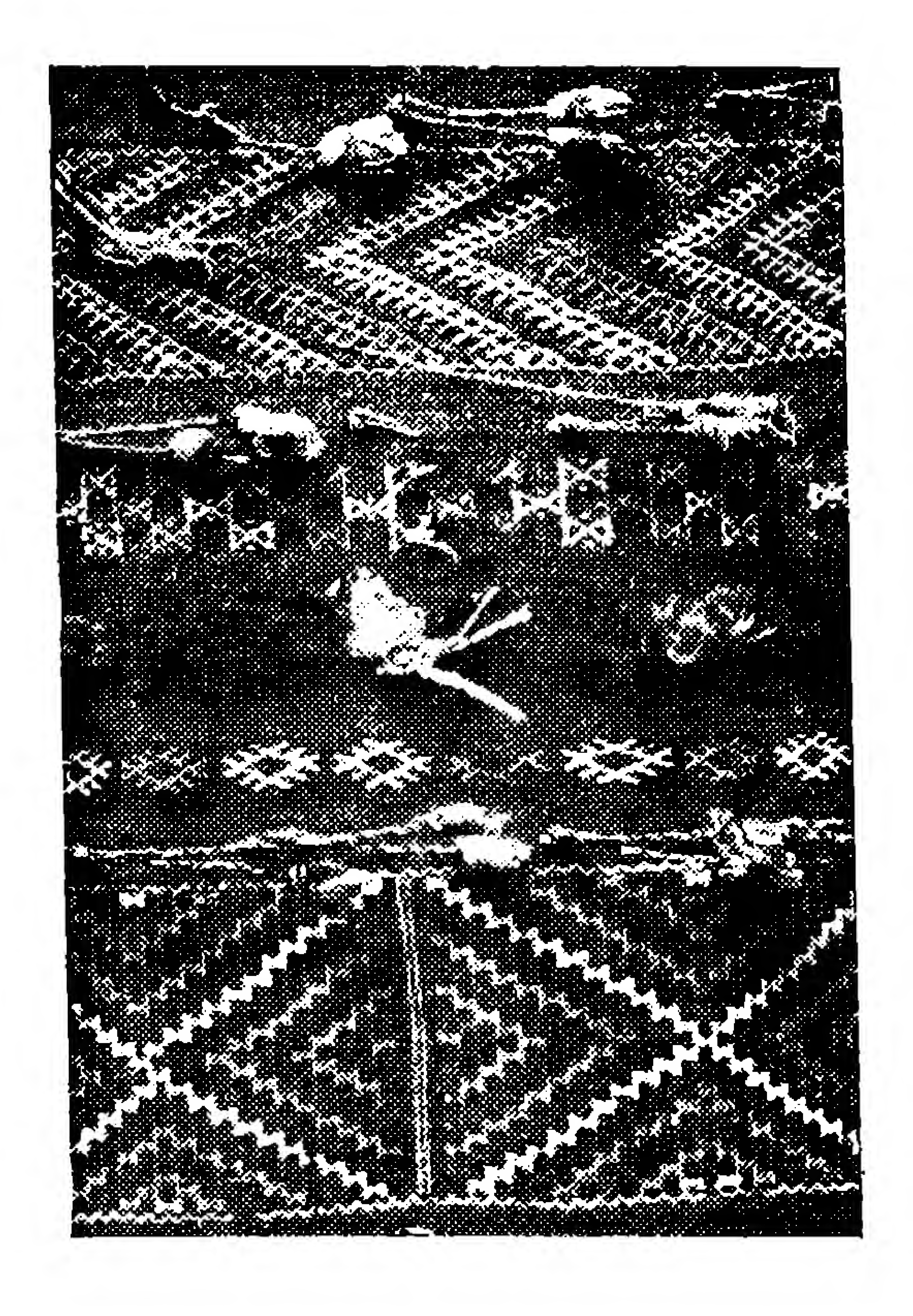
(1) تعتبر هذه الترجمة ضائعة

(2) راجع دائرة المعارف الفرنسـية مادة « بربر »

التي سبقت الاشارة اليها في الحكايات والألغاز والأمثال على ألسنة الحيوان ، وقد توارثتها القبائل البربرية خلفاً عن سلف واعارتها أهمية كبرى ، غير ان الحكايات قليلة بالنسبة للأقاصيص والفكاهات العربية ، ذلك لان اللغة البربرية صلبة ، ليست من الرقة والحلاوة بحيث تسمح لصاحبها بتنميق الحكايات وزخرفتها ومهما نسينا فلا ننس تلك الاغاني البربرية المنتشرة في البلاد الافريقية جميعها ، فهي من المقطوعات الغنائية الحلوة التي لا تكلف فيها ولا تصنع ، تنبعث من أعماق الفؤاد معبرة عما يختلج في صدر المرأة والرجل على السواء من عواطف مختلفة رقيقة في كثير من الأحيان

أما الفنون الجميلة فللبربري وللبربرية بنوع خاص حظ وافر منها فهي تبدي مواهب فنية حقيقية في ترويق الزرابي والملابس التي تحيكها بنفسها والأواني الطينية التي تصنعها بيديها ، الأمر الذي يعطي الدليل القاطع على نشاطها المتزايد وذوقها السليم

والمرأة البربرية ، من جهة أخرى ، شديدة الاعتناء بخلقتها ، حريصة على تمسكها باستخدام كل وسائل التجميل حتى انك لتراها تتحمل آلام الوشم وتصبر على حمل الجواهر الثقيلة في سبيل ذلك ، غير شاكية ولا متبرمة !



بساط بربرى يشهد لصاحبته بسلامة الذوق وجودة الصناعة

على ان هـــذا الوشم لم يكن المراد به ـ أول الامر ـ التجمل والتزين في حد ذاتها ، وانما كانت القبيلة تتخـــذه كالعلامة تتميز به عن سائر القبائل الأخرى ، حتى أصبـح لكل قبيلة وشمها الخاص ومعلوم لدينا ان البرابر أثنـــاء غزواتهم الظافرة لم يكونوا ليكتفوا بالفوز والانتصار على العدو ، وانما كانوا ينتهزون الفرصة للاستيلاء على كل ما كان يقع تحت أيديهم من أسلحة ومتاع ونساء ... ويروى بهـــذا الصدد ان أفراد القبيلة المغلوبة تمكنوا غير ما مرة ـ بفضل ذلك الوشم [1] ـ من استرداد نسائهم اللواتي وقعن في قبضة العدو ، وكلما ساعدهم الحظ وأبرقت لهم بارقة الانتصار[2]

هذا ولن نختتم هـذا الفصل دون أن نقول كلمة عن أشهر القبائل البربرية ، وهي تنقسم الى ثلاث قبائل كبرى هي مصمودة وصنهاجة وزناتة أما الأستاذ فوتيى فانه يقول ما نصه في حديثه عن القبائل البربرية « بل قبائلهم الرئيسية اثنتان قبيلة زناتة المسماة أيضاً بالبطر ، وهم أهل بادية ، وقبيلة صنهاجة ، وصنهاجة هؤلاء كانوا يعيشون في المدن والقرى ويسمونهم بالبرانس » والى هـاتين القبيلتين

---

(1) وكان ذلك الوشم يكسـو النسـاء البربريات أحياناً من أعلى رؤوسهن الى أخمص قدميهن .

(2) من مقال ظهر في جريدة « طام» الفرنسية في هذا الموضوع بقلم الآ نسة ماريز بريال (Maryse Pèriale)

تنتمي سائر القبائل الصغيرة الأخرى ومنها قومية وقـــالبة ومكناسة وجزولة وغمارة وغيرها وغيرها

أما زناتة فعاصمتهم تلمسان ، ولهم أيضاً مدينة طاهرت ، واما أشير وبجاية وقلعة بني حماد فهي من عواصم الصنهاجيين الذائعة الصيت يضاف الى هـــذا ان قبيلتي صنهاجة وزناتة مشهورتان جداً في هذه البلاد، أولاً ، بسبب العداوة الطبيعية التي كانت تكنها كل منها للأخرى ، ثانياً ، من أجل الدور السياسي الذي لعبته كل من القبيلتين المذكورتين أثناء الحروب الطاحنة التي اشتعلت نيرانها في القرن العاشر الميـــلادي بين الفاطميين ، من جهة ، والمروانيين من جهة أخرى ، فـكان ان انتهت ـ كما هو معلوم ـ باندحار العبيديين واضمحلال سلطانهم من افريقيا الشمالية بصورة نهائية

العصر الحجري بالمغرب

كان رجال هذا العصر الحجري . يسكنون الكهوف والمغاور ، وبها يدفنون ، وتثنى عنـــد الدفن أرجلهم والمظنون ان نظام العـــائلة قد دخل بلاد البربر نحو خمسة قرون قبل المسيـح (بعد انتصاب الجـــالية الفنيقية بمراكز الساحل المغربي) ، وللأب السلطة المطلقة في العائلة

وكانت هذه الجموع الأولية تعتقد في السحر ، ولها أعمال كهنوتية سحرية تقوم بها ، وكانت تعتقد ان الأفعى والقردة والكبش ذا القرون الكبيرة حيوانات مقدسة أما طعامها فـكانت تأكل لحوم الوحوش ونخاعها وحشرات البر والبحر وأثمار الأشجار وبعض الجذور والأعشاب

ولم يكن الطقس في هاتيك العصور يخالف مخالفة محسوسة حالة الطقس اليوم ، انما كان يمتاز على الطقس الحاضر بكثرة الرطوبة ، ولقد كانت البلاد ذات غابات وأحراش هائلة ،

وقع تحطيمها شيئاً فشيئاً سواء بداعي الضرورة الفلاحية أو بداعي الحروب أو غير ذلك (ا).

وكانت الحيوانات الكبيرة كالفيلة ووحيد القرن والنعامة وغيرها موجودة بهذه البلاد ، الا انها فقدت منها شيئاً فشيئاً، وكذلك كانت الحيوانات الكاسرة كالأسود والنمور والببر تفتك بالانسان والماشية فتكاً ذريعاً أما البقر والغنم والمعز والحمير فالمظنون انها قدمت من مصر .

وكانت تربية المواشي هي الثروه الوحيدة لأولئك السكان الأقدمين ، لكن الأعمال الزراعية لم تكن مفقودة بالمرة . والفول معروف في البلاد منذ أقدم العصور ، ولعله أقدم نبات مغذ استعمل بها ، ولم يأت من الخارج وكذلك عرف القمح بها في عصر الحجارة والزياتين والكروم الوحشية ، ومعلومات هؤلاء القوم الزراعية وردت لهم من مصر أيضاً .

ونظن ان البربر عند قدومهم من المشرق لهذه البلاد هم

(ا) وقع ذلك بالخصوص أثناء الحملة التي شنتها الجحافل الوندالية على افريقيا الشمالية أثناء القرن الخامس الميلادي (أنظر صحيفة 99) .

الذين أتوا بكل ما ورد من مصر سواء من الحيوانات أو من المعلومات الابتدائية

عن « قرطاجنة في أربعة عصور »
تأليف احمد توفيق المدني (ص 16 و 17).



الفصل الثالث

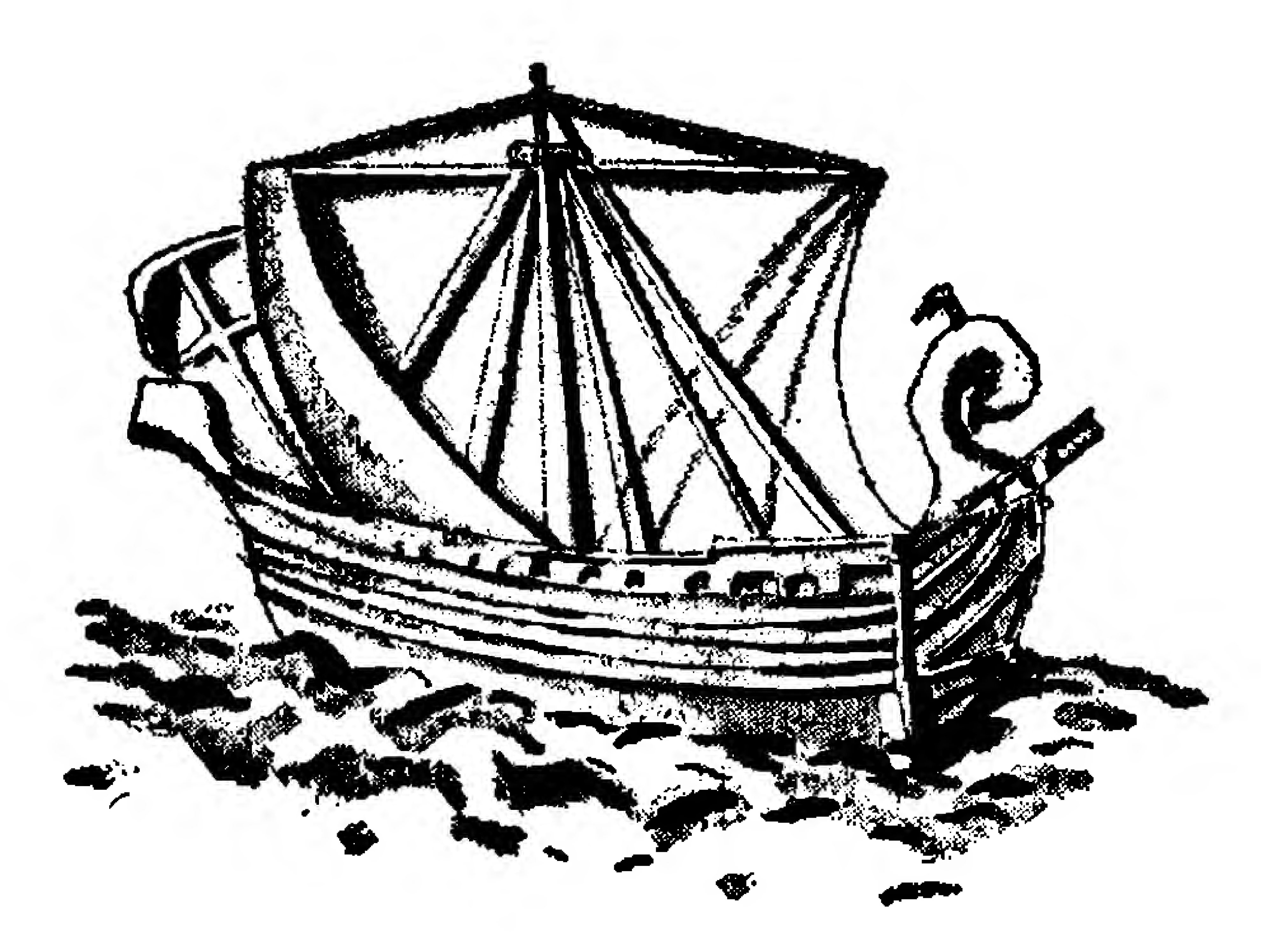
عصر الفينيقيين

كلمة عن الفينيقيين ـ تأسيس قرطاجنة ـ مميزات القرطاجنيين ونظمهم الادارية ـ سياسة قرطاجنة الأهلية تأثير قرطاجنة في سكان هذه البلاد ـ تصادم قرطاجنة مع القوة الرومانية

تضاربت الآراء في حقيقة أمر الفينيقيين ومسقط رأسهم وتأثيرهم في الامم الساكنة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وتأثرهم هم الآخرين بعادات تلك الأمم وأخلاقها، على أن هناك أمراً كاد ان يتفق عليه المؤرخون هو ان الفينيقيين قوم كانوا يسكنون الأراضي الواقعة بين ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي وجبال لبنان، في بقعة خاصة اسمها « فينيقية » .

وكانت عاصمتهم « صور » القديمة التي عرفت بمئات السنين قبل المسيح ، بثروتها العظيمة ونظامها الاداري المحكم ، وقد افتن الفينيقيون بالتجارة منذ قديم الزمن طمعاً وراء جمع الأموال والحصول على الأرباح الطائلة ولأجل هذه الغاية أقاموا لهم أسطولاً هائلاً جعلت وحداته التجارية تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط حتى أصبحت لهم فيه السلطة المطلقة كما كانت انكلترا ما قبل الحرب العالمية الثانية تعتبر سيدة البحار بفضل أساطيلها العتيدة ، ثم جعل الفينيقيون يهجرون عاصمتهم صور التي لقبت بلندن القديمة وينشئون المستودعات التجارية (Comptoirs) في البلاد الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، فقامت من ثم مدن عدة أشهرها تونس (Tunis) وسوسة (Hadrumete) وبنزرت (Hyppo Diarrhytus) وعنابة (Hippone) ومليلية (Rusaddir) وطنجة (Tingis) والعرائش (Lixus) والمهدية (Thimiaterion)والصويرة(Coricon Teichos) وغيرها، وكلها مدن تجارية كانت تمتاز بحركة زائدة ونشاط ظاهر في ابرام مختلف المعاملات التجارية ومعنى تلك المعاملات ان الفينيقيين كانوا يعرضون على الأهالي منتوجاتهم الخاصة كالأقمشة والأسلحة والأواني الطينية وغيرها ويأخذون مكانها الصوف والجلد والعاج والأنعام والعبيد وهذه الطريقة المبنية على تبادل المنتوجات جعلت الفينيقيين ، مدة طويلة ، في غنى عن استعمال القطع النقدية ، على انه لما اتسع نطاق

تلك المعاملات التجارية اضطروا الى ضرب النقود، واخترعوا



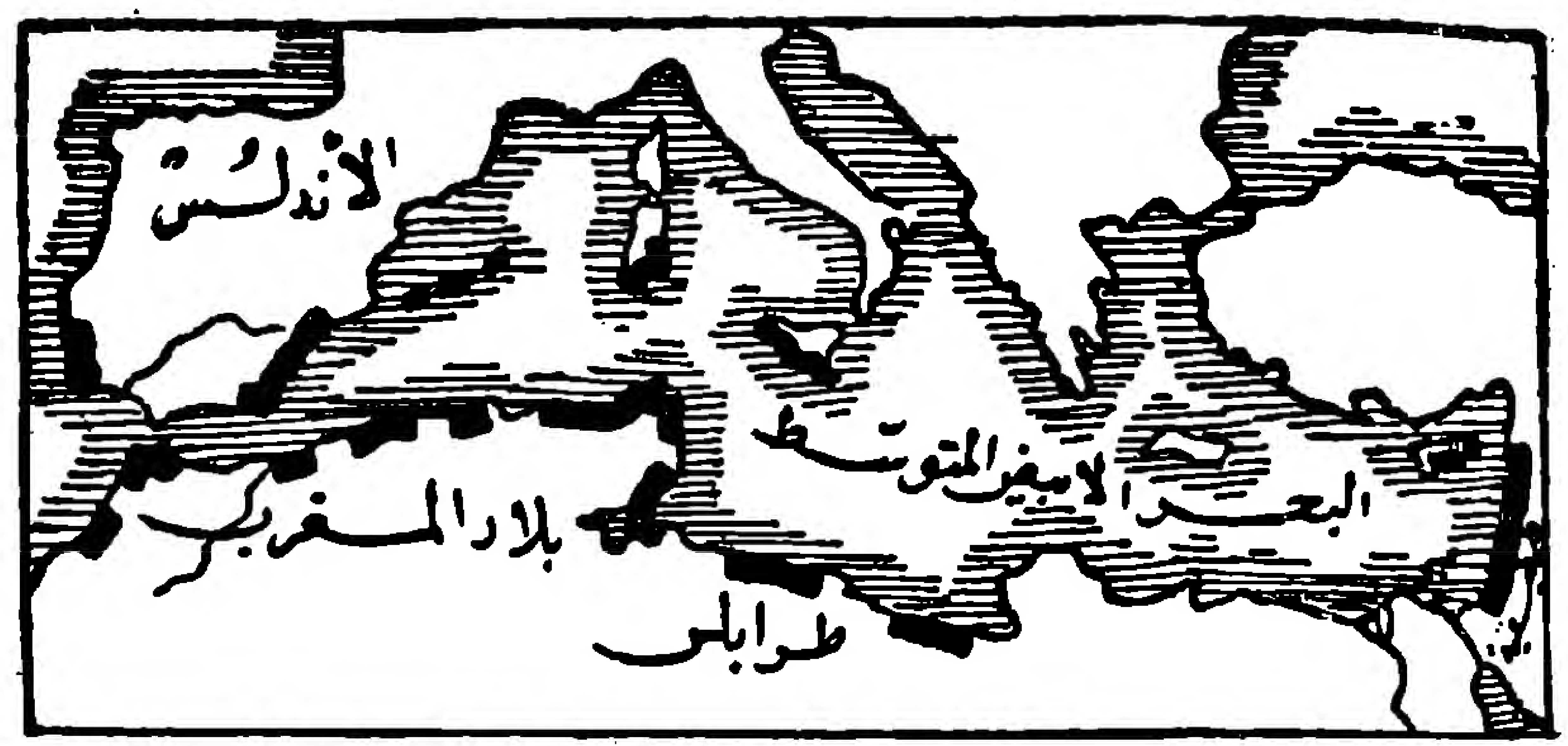
سفينة فينيقية

الحروف الهجـــائية الأولى ، فأخذتها عنهم الأمم الأخرى كاللاتينيين واليونانيين .

ولقد كان هذان الحادثان في تاريـخ التمدن الفينيقي من أهم الأسباب التي مهدت لهم السبيل لعقد العلاقات التجارية والأدبية مع الأمم الأجنبية ولا سيما المغربية منها

ومما يؤخذ على الفينيقيين انهم كانوا يعبـــدون الأوثان ويضحون بأولادهم عند الضرورة ، في سبيل إرضاء آلهتهم المتعددة واستمطار رحمتهم

بعد هذا العرض الخفيف لأحوال الفينيقيين العـامة وجب أن نتعرض في شيء من التفصيل الى الأسباب التي دعت إلى إنشاء أعظم مستعمرة فينيقية في شمـــال افريقيا ، ألا وهي قرطاجنة العاصمة الشهيرة ومما ينبغي ذكره ـ قبل كل شيء في هذا المقام ـ اختـــلاف المؤرخين في تحديد التاريـــخ الذي



فينيقية والمستودعات التي أسسها الفينيقيون على ساحل البحر الأبيض المتوسط

تأسست فيه هذه العاصمة، وان نحن احتفظنا بسنة 883 ق.م. حسبما يذهب الى ذلك جمهور المؤرخين ، فان هناك من يزعم ان تأسيس قرطاجنة لم يكن إلا في عام 813 ق م ومهما يكن من أمر تأسيس العـــاصمة القرطاجنية القديمة فنحن ذاكرون لك ـ فيما بعد ـ الأسباب والظروف التي سبقت تأسيس هذه المدينة الشهيرة

يسوق المؤرخون عادة روايات متعددة في الموضوع ، منها

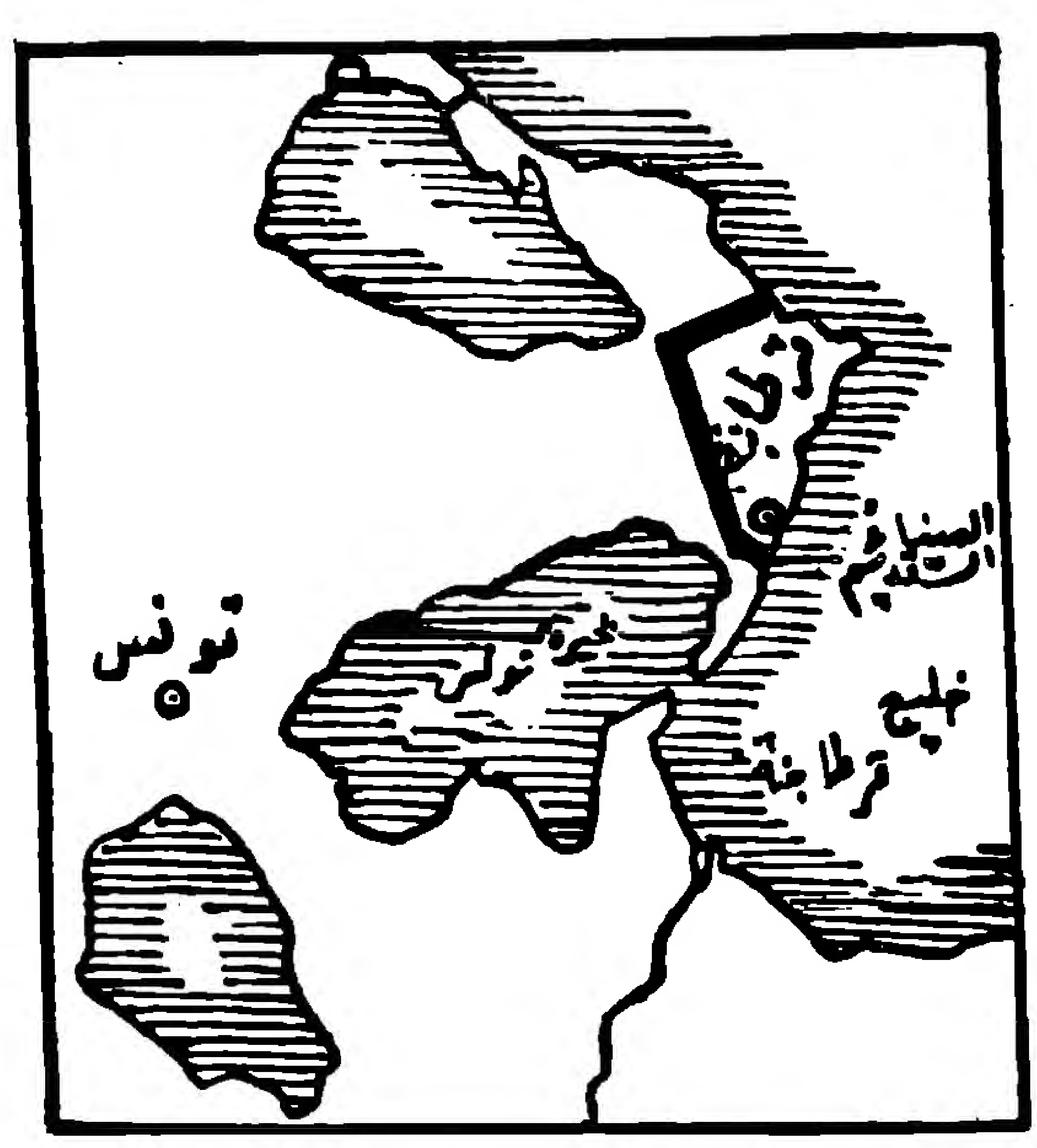
أن جماعة من الفينيقيين هاجروا من مدينة صور (Tyr)
سنة 480 ق. م. وعلى رأسهم الأميرة عليشة (Elissa) ،
وقد فرت من سيطرة أخيها بيقماليون (Pygmalion)
حاكم بلادها المستبد الذي قتل زوجها لانتزاع الحكم من
يده ، ومنهم من يعتقد ان الجالية المذكورة لم تغادر مدينة
صور الا لأنها ضاقت بعدد سكانها المتزايد يوماً بعد يوم
وسواء أصحت هذه الأسطورة المأخوذة عن الشاعر اللاتيني
فرجيل (Virgile) أم لم تصح ، فإن الأقدار حملت تلك
الجماعة من المهاجرين حتى ألقوا عصا التسيار بالساحل التونسي
وبنوا به مدينة سميت « قرطاجنة » بمعنى المدينة الجديدة
(Quart Hadacht) ، تلك المدينة الهائلة التي لا زالت
بعض أطلالها ماثلة للعيان الى حد الآن (1)

وترى أولئك المهاجرين الذين كانوا ـ أول الأمر ـ
ملازمين للحياد راكنين الى الدعة والسكون ، يهتمون بتنظيم
البعثات البحرية والرحلات التفقدية لبسط نفوذهم على سواحل

---

(1) ويقولون في التاريخ القديم ان الأميرة عليشة رغب في التزويج
منها ملك القبائل البربرية « أرياباص » صاحب البلاد التونسية غير انها كانت
ترغب في غيره ووقع ان تركها عشيقها ونزح عن البلاد فاغتنمت لذلك
عليشة ولم تر الا الموت يخلصها من موقفها الحرج فسددت السهم في صدرها
وقتلت نفسها بنفسها اما خوفاً من أن تسقط في يد ملك البربر أو غماً
وأسفاً على عشيقها الأول !

البحر الأبيض المتوسط والبحر المحيط ، وهذه رحلة واسعة النطاق يسهرون على تنظيمها ويكلون أمر قيادتها إلى بحارة



قرطاجنة وميناؤها القديم بالنسبة لتونس حاليا

مهرة ، على رأسهم قائد محنك خبير بالشؤون البحرية يدعى « حانون » (Hannon) فيجوب حانون هذه السواحل المغربية من أقصاها إلى أقصاها ماراً على أعمدة هرقل

(450 ق . م) ثم يرجع إلى قرطاجنة مزوداً بكمية وافرة من المعلومات حول جغرافية بعض المناطق الافريقية وعوائد أهلها وكيفية معيشتهم

ولئن كان القرطاجيون يبدون نشاطاً كبيراً لتوسيع الرقعة التي احتلوها سابقاً ، فقد أصبح اليونانيون من جهتهم يجتهدون في بسط نفوذهم على الساحل الشمالي الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، ويشاء ربك أن يصطدموا ، طبعاً ، بقوة قرطاجنة الفتية ، فيقوم من ثم عراك عنيف بينهما يؤول فيه النصر نهائياً إلى أهل قرطاجنة

وترى مدينة قرطاجنة تمتد وتزدهر بسبب ذلك الانتصار أولاً ، ثم بفضل الوافدين عليها بكثرة من مدينة صور القديمة التي أصبح أمرها يضعف شيئاً فشيئاً منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي فتحت فيه أبوابها للقائد بختنصر الثاني (Nabuchodonosor 11) بعد حصار دام ثلاثة عشر عاماً بالضبط

ولما عظمت قرطاجنة وامتد نفوذها إلى أقصى بلاد المغرب ، فكرت في قطع العلاقات مع أم الوطن ، وأصبحت مستقلة بنفسها تعمل على تنظيم شؤونها الإدارية والسياسية ، محتفظة أشد ما يمكن بصبغتها الشرقية القديمة .

ويمتـــاز أهل قرطاجنة بالمحافظة على لغتهم الوطنية وتقاليدهم المرعية وآلهتهم المتعددة التي ورثوها عن أجدادهم الفينيقيين، كما أنهم يمتازون بالمحافظة على كل ما من شأنه أن يذكرهم بحياتهم الشرقية الأولى أما مبادئهم فهي المبادىء المادية وقد تشبثوا بها الى حد ان الحركة الفلسفية التي اشتهر بها اليونان لم تحرك فيهم ساكناً ، بل لم تؤثر فيهم بالمرة بيد انهم تأثروا بالفن المعماري اليوناني ، ذلك الفن الذي نجد أثره ظاهراً في المقابر والكنائس التي يرجع بناؤها الى القرطاجنيين، كما يبدو جلياً في نوع الجواهر والأقمشة والأواني الطينية التي كانوا يستعملونها ، ومن الممكن أن نقول ان الفن القرطاجني كان خليطاً من فنين متباينين فيه من الفن اليوناني ، وفيه من الفن الفينيقي الذي أتوا به من بـــلاد الشرق

يستخلص حينئذ مما تقدم ان القرطاجنيين كانوا بمثابة همزة الوصل بين الشعوب المتمدنـــة القديمة كالمصريين واليونانيين والشعوب المتأخرة كالتي كانت تسكن – اذ ذاك – في افريقيا الشمالية

هذا ولسنا نعلم شيئاً كثيراً عن النظم التي اعتمدت عليها قرطاجنة في إدارة شؤونها السياسية ، إلا ما أفادنا به المؤرخ الشهير الم البارتيني الذي يقول في هـــذا الموضوع بالذات « كل ما نعلم عن تلك النظم ان قرطاجنة كانت تنتخب كل عام رئيسين للحكومة لمدة سنة واحدة وأعضاء مجلس الشيوخ

لمدة حياتهم ، وهم الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور ، ولم يكن هذا المجلس يجتمع إلا عند وفاة أحد أعضائه ، فيقع تعيين من يخلفه ونعلم فوق ذلك ان قرطاجنة كانت تنتخب قائداً تسند إليه مقاليد الأمور العسكرية وتكلفه بقيادة الجيش القرطاجني، ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد انه لم يكن في استطاعة أحد الرئيسين اللذين سبقت الإشارة إليهما أن يتخذ أي قرار إلا بموافقة زميله الآخر

أما وضع النصوص القانونية فكان أيضاً من خصائص الحاكمين المذكورين ، تساعدهما على ذلك لجنة خاصة يعينها مجلس الشيوخ، وكانت هذه التقارير ترفع بعد تحريرها للمجلس بقصد الموافقة عليها وأما الولاة – وهم الممثلون للحكومة المركزية في سائر المناطق المحتلة – فقد كانت الحكومة تختارهم غالباً من بين التجار والصناع ، أي من الطبقة البرجوازية الرأسمالية التي كثيراً ما كانت تقدم مصالحها الشخصية على مصالح الأمة ، فتعكر بمثل هذا العمل الشنيع صفو العلائق بين الحكومة وعامة الشعب

والواقع ان علاقات قرطاجنة مع الأهالي كانت تجارية محضة في أول الأمر ، بمعنى ان قرطاجنة كانت متمسكة بالحياد ، لا تتدخل بوجه في شؤون البلاد ، بل تسهر على أن تكون العلاقات جد حسنة بينها وبين السكان . ولكنها

سرعان ما تخلفت عن هذا الموقف الرزين ، وكأنها أرادت أن تلعب دوراً في ميدان السياسة الداخليه للبلاد ، فمالت إلى بعض رؤساء البربر الذين تمدهم بالأموال حتى تمكنت شيئاً فشيئاً من بسط سيطرتها على البــــلاد بأسرها وتمضي السنون تلو السنين ، ولم تلبث مملكة قرطاجنة – التي كانت ملكية أول الأمر – أن انقلبت إلى مملكة جمهورية ، لكن ليس هذا معناه ان الغاصبين ساروا في سكان البــــلاد سيرة لين وإشفاق ، بل المعروف عنهم أنهم كانوا يعاقبون الأهالي بقسوة وشدة على أتفه الأمور ، ويستخلصون منهم أنواع الضرائب ، كما كونوا منهم جنداً أعدوه للدفاع عن كيانهم حيناً ولصنع السفن حيناً آخر

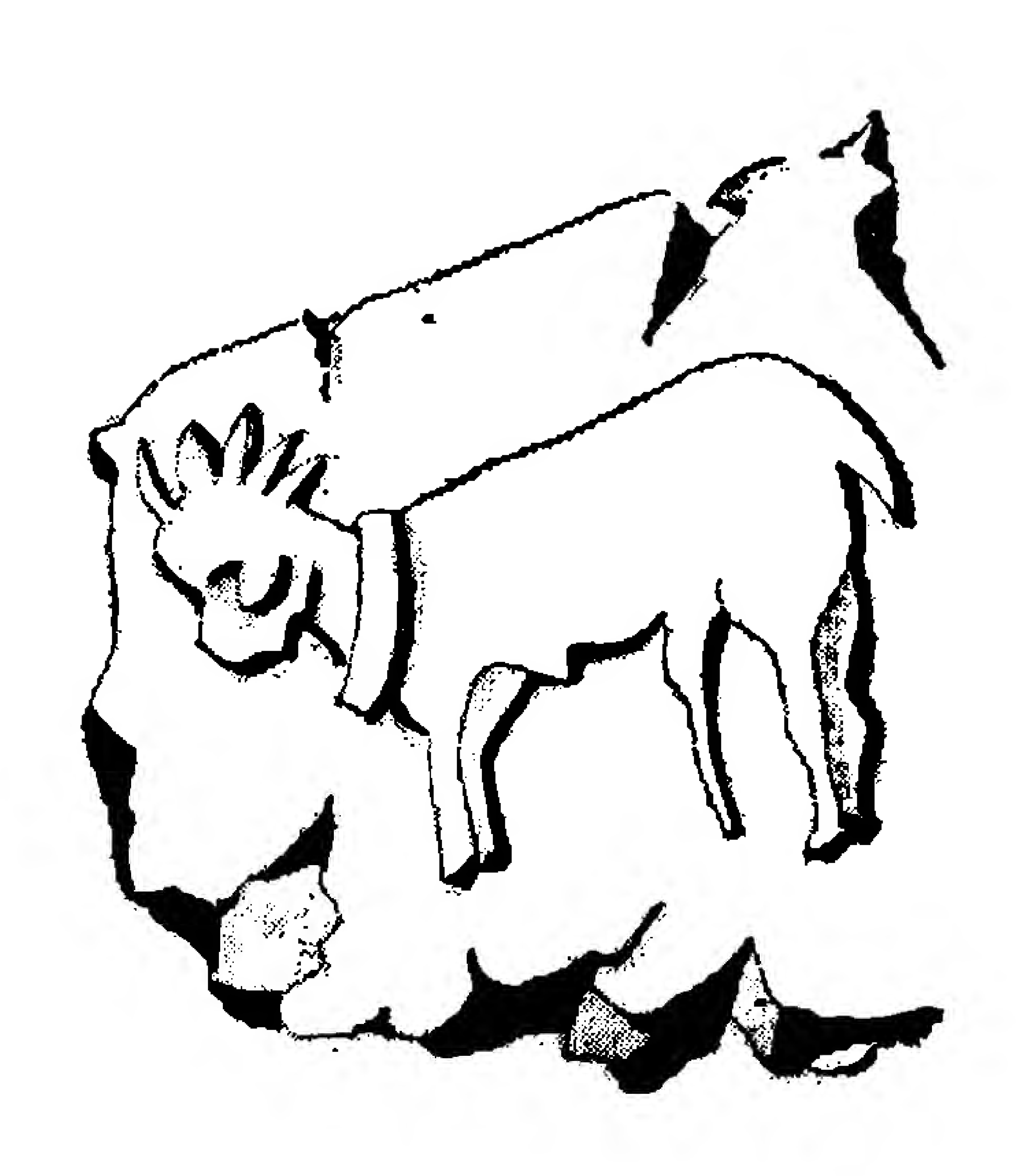
على أن تمسكنا بالحقيقة التاريخيه يحملنا على القول بأن احتلال قرطاجنة لبلاد المغرب لم يكن كله شراً ووبالاً عليها ، بل لا بد من الاعتراف بأنه أفادها إفادة تذكر فالمعروف اليوم عن القرطاجنيين انهم بثــــوا فى رعاياهم البربر روح المدنية والعمران جاءوهم بالآلات الفـلاحية التي أتقنوا صنعها وحملوهم على توجيه عنايتهم للفلاحة لا سيما فيما يرجع لغراسة الأشجار ، كما حملوهم على الاهتمام بتربية المواشي

والذي يعطي الدليل على ان نشاط القرطاجنيين كان بعيد الاثار في هذا الصدد ما قاله « أقستان برنار » من أن الرومان

أنفسهم نسجوا على منوال القرطاجنيين في الميدان الفلاحي ، فترجموا الى اللاتينية كتاباً في الفلاحة كان قد ألفه أحـــد القرطاجنيين اسمه « ماقون » (Magon) ، واستمدوا منه كثيراً من المعلومات الخاصة بأساليب الفلاحة المثمرة القيمة وقد نسج أهل المغرب على منوال القرطاجنيين في هذا المضمار وعملوا على استثمار أراضيهم بصورة تبـــعث على الرضا والاطمئنان

هذا ولم يحذ المغاربة حذو القرطاجنيين في الشؤون المادية والاقتصادية فحسب ، بل اقتفوا آثارهم في سائر الميـادين الأخرى ، فأخذوا عنهم ما كانوا يتحـلون به من أخلاق وقلدوهم حتى في وثنيتهم، فجعلوا يعبدون الكبش « عمون » كما كان يعبده القرطاجنيون من قبلهم ، قلدوهم في كل شيء وأخـــذوا عنهم كل شيء حتى كادت أن تبتلعهم تلك الحياة الجديدة والواقع ان الحيـــاة في المدن العظيمة والقرى العامرة كقرطاجنة وقسنطينة وسطيف وغيرها كانت راقية مزدهرة في تلك الأيام ، بحيث كثرت فيها البناءات والأجنة والقصور والملاعب ونفقت فيها سوق العلم والأدب... وانتشر لسان القرطاجنيين القومي ، فأخـــذه عنهم البربر بسهولة لا تستغرب اذا ما أعدنا إلى الأذهان مرة أخرى ان البربر والقرطاجنيين من أرومة سامية واحـــدة وان الشبه

عظيم بينهما لا فيما يتعلق بالبنية والعنصر بل فيما يرجع الى التفكير أيضاً.



الكبش الذي كان يعبده القرطاجنيون والمغاربة في العصر القديم « صورة » منحوتة اكتشفت بجبل زناكة « دائرة فجيج »

وقد أثبت المؤرخون بالحجج القوية والبراهين القاطعة أن القرطاجنيين من قبائل كنعان العربية التي رحلت الى افريقيا

الشمالية منذ ثلاثة آلاف عام

وفيما يلي نسوق إليك برهاناً لغوياً على ان القرطاجنيين من أصل عربي وأن لغتهم لغة عربية ، أو كثيرة الشبه باللغة العربية ، وقد دخلت الى افريقيا مع الحملة الفينيقية الأولى [1].

فإذا تذكرت ان البربر والقرطاجنيين من أرومة سامية ، يرجع أصلهم جميعاً الى المشرق وثبت لديك – بناء على ما تقدم من البراهين التي لا تقبل الجدل ان القرطاجنيين من قبائل كنعان العربية وان لغتهم هي اللغة العربية – عرفت لماذا أقبلت الطبقات البربرية على تعلم اللسان القرطاجني اقبالاً عظيماً ، وتبينت لك الأسباب التي ساعدت على انتشار العربية بسرعة كبيرة في بلاد المغرب بعد ما خضعت للمسلمين وهذا الذي حدا ببعض المؤرخين الى التصريح بما يلي عند تناوله الكلام على سرعة اضمحلال اللغة اللاتينية من افريقيا الشمالية فقال « لعل السبب في انتشار اللغة العربية في المغرب بمثل هذه السرعة واضمحلال اللاتينية منها يرجع الى أن عدداً عظيماً من الأهالي في هذه البلاد كانوا

(1) أنظر جدول ص 50 - 51

يتخاطبون باللغة القرطاجنية [1] »

ومهما يكن من انتشار لغة قرطاجنة بالمغرب وتعلق البربر بأذيال الحضارة القرطاجنية ، فانك تستطيع أن تلمس مقياساً لعظمة مدينة قرطاجنة في التقرير الذي بلغنا عن رحلة حانون الآنف الذكر فإذا ما بحثنا عن معرفة أسباب النجاح العظيم الذي أحرزته العاصمة القرطاجنية سواء من الناحية الاقتصادية والسياسية أم من الناحية الأدبية تبين لنا أن ذلك النجاح يرجع الى عوامل ثلاثة

أولاً ـ نشاط القرطاجنيين وقوة عزيمتهم

ثانياً ـ ضعف مدينة صور وتلاشي أمرها يوماً بعد يوم

ثالثاً ـ موقع قرطاجنة في مكان مناسب بين حوضي البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي على مقربة من جزيرة صقلية وسردينيا

وتمتع البربر والقرطاجنيون بمدنيتهم وأصبحت قرطاجنة مسيطرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط بلا منازع الى ان قامت الدولة الرومانية تبسط نفوذها على جزيرة ايطاليا بأسرها ، ثم جعلت ترنو بعين الطمع الى تلك البقاع الواقعة تحت سيطرة القرطاجنيين وأيقن الرومان انه لا بد من

(1) من كلام الفيلسوف المؤرخ الفرنسي الشهير رينان (Renan) ويؤيده في هذه النظرية الصائبة المؤرخ قوتيني في كتابه العبقري « جنصريق ملك الوندال » (ص 214)

الجمل الموجودة في العمود الأول من الجدول التالي مأخوذة من حفرية قرطاجنية اكتشفت في البرازيل بأمريكا. يحسن بك ان تقارن كل جملة بها بالجملتين المقابلتين لها بالعامية اولاً بالعربية الفصحى ثانياً. فماذا تستنتج من هذه المقارنة ؟

الجملة الفينيقية	مقابلها بالعامي العربي	مقابلها بالعربية الفصحى
ها احنا بني كنعانم فرنم حقرة حمل أوش حر حصل هك	هنا حنا بني كنعان من فرانم حملنـــا الحقرة موش حرام نحصلوا هكا ؟	هنا نحن بني كنعان من فرانم تحملنا الاحتقار أليس حراماً أن نحصل هكذا ؟
لا عنا أزيد حيا قتار في حيرم اناس تا بحو العلى كلوم	ما تزداد شي الحياة عندنا أكثر في الهم الناس متـــاع البحر الحزن كلاهم	لن تزيد الحياة عندنا أكثر ان ناس البحر في الهم الحزن أكلهم
أو على كان ترى سنا تاسعة أو عشرة	والحزن كاين ترى السنة تسعة أو عشرة	والحزن كائن وهذه السنة هي التاسعة او العاشرة
الحرامى ملك هنا عبيد ولاح لا أوم	الملك الحرامي هنا لوح عبيده لاش ما هو شي معهم	الملك الحرامي هنا رمى بعبيده لماذا ليس هو معهم
عفو الى دبر بهم شاجا أول الشم	عرفوا اللي دبر بهم باش جـــا اول الشرع	عرفوا أنه دبر بهم لكي يتوصل الى أول مناصب القضاء

عما هنا تا عسرة كي الحي	الحما هنا عسيرة كيف	الحي الحمى هنا عسيرة فاذا أحب
حبى ما هى حر	يحب الم يلقاه حار	الحي ماء وجده حار
اوستم سلم اش بر نار فينا	ولو كان هذا بركة نصبر لكن	لو كان هذا فقط لصبرنا لكن
	اش هذا البر النار تشعل فينا	ما هذا البر النار تشعل فينا
حامي أو البرهنا ما غير بعل	حامى البر هنا.ما غير بعل هو	البر هنا حام وما غير بعل
أولى أن	اللي عان	الذي أعاننا
حتى خبر اللون	حتى خبر الهون	لا يصلنا اي خبر الى هنا
راحلهم سنام عشرة ما تم	راحلتهم السنا (فات عليهم	رحلت عنهم السنة ومنهم عشرة
	العام) مع عشرة ماتوا	ماتوا
كسنا ست ناس مبايـع راتاسو	بقينا ستاناس مبيوعين رانـــا	بقينا ستة أناس مباعين نقوم
كي مات عصبط عبد هبلت	نعسو كيف مات عصبط العباد	بالحراسة لما مات السبط أصاب
أى عليه	هبلت عليه	العباد الاختبال عليه
اولمو عالى كانت ايا حنانة	قتلة الحزن كانت موته حناتة	قتله الحزن لكن موته كان
	عليه	حنانا الاهيا عليه

من تقويم المنصور لأحمد توفيق المدني (ص – 77 – السنة الخامسة)

محاربة هؤلاء الأعداء إذا هم أرادوا العيش في ظل الحرية والسيادة القومية فجعلوا يتحينون الفرصة لاشعـــال نار الحرب بينهم وبين حكومة قرطاجنة ، تلك الحرب الهمجية التي دامت أكـــثر من قرن والتي أسفرت عن انهزام القرطاجنيين وتدمير مدينتهم الشهيرة.

●

تقرير رحلة « حانون »

رأت الحكومة القرطاجنية ان ترسل احـــــد قوادها المشهورين ، اسمه « حانون » ، الى ما وراء أعمدة هرقل ليختط هنالك مراكز يعمرها القرطاجنيون والافارقة على السواء... فأخذ حانون عدته للسفر وابحر في ستين سفينة تحمل ثلاثين الف شخص مابين رجال ونساء ..

قال حانون

« خرجنا من الاعمدة وسرنا في البحر مدة يومين[1] وعندما أسسنا اول مركز منبسط كبير من السهول والوهاد وأطلقنـا عليه اسم تمياتريون[2] وقصدنا على الاثر ناحية الغرب ، فوصلنا

(1) وكان السفر من قرطاجنة الى اعمدة هرقل - اي منها الى بوغاز جبل طارق - يتطلب سبعة ايام بلياليها ، هـــذا على شرط ان يكون البحر هادئاً مطمئناً (التعاليق كلها للمؤلف)

(2) هي المهدية وتقع على مقربة من القنيطرة بالمغرب الاقصى .

الى لسان من الارض اللوبيـــة [1] تكتنفه الاشجار يدعى بسولاييس [2]

وهناك أسسنا معبداً لبوزيدون الاله[3] واتجهنا بعدئذ نحو مشرق الشمس ، وبعد انقضاء يوم ، وصلنـا الى بحيرة قرب البحر نبت عليها قصب طويل وحولها ترعى فيـلة جسيمة العدد وكمية جمة من الحيوانات الاخرى

وغادرنا هذه البحيرة وسرنا يومـاً ، فأسسنا على جانب البحر عدداً من المراكز وهي تجدار ، كريان ، جتـة ، مليتة ، أرفيس [4] وبعد مغادرتنا لهذه النواحي وصلنا الى مصب نهر اللكسوس [5] العظيم الذي اتخذ بدايـة مجراه من لوبيا وعلى ضفافه ترعى سيامة أهل اللكسوس الرحالين،ولقد توددنا اليهم كثيراً ومكثنا معهم زمناً ، وهناك قـوم يدعون الاوتوبيون ، يعيشون على مقربة من مصب هـذا النهر وهم يقطنون ارضاً تخترقها جبال شامخة وبها الوحوش الضارية قد

(1) نسبة الى « ليبيا » .
(2) Soloeis
(3) ولعل ان هذا المعبد كان بنفس المكان الذي يوجد بـه اليوم ضريح « سيدي بو زيد » على بعد كيلومترات فقـط من مدينة أسفي والمظنون ان اسم « بو زيد » محرف عن « بو زيدون » القرطاجني .
(4) أسست هذه المستودعات كلها على الساحل الاطلنطي ـالمغرب الاقصى ـ في الناحية الواقعة بين الصويرة (Coricon Teichos') وأكادير .
(5) وادي درعة بالمغرب الاقصى ايضاً

اتخذت مساكنها وهؤلاء الاقوام شديدو اللؤم ويقال ان نهر اللكسوس ينبع من ارضهم ، وحوالي النهر يسكن صنف من الناس لهم اشكال خاصة يدعون التروكلوديت (1) ويزعم اللكسوسيون ان هؤلاء القوم يسبقون الخيل عدواً

أخذنا معنا عدداً من المترجمين وسرنا نخترق الصحراء الى الجنوب ، وهكذا سرنا يومين ، ثم عرجنا في المسير ناحية الشرق وبعد مسيرة يومين آخرين وجدنا خليجاً دائرته نحو الميلين وفي وسطه جزيرة لها اهمية دعوناها صرتـه ، وهذه المسافة بينها وبين اعمدة هرقل تضاهي المسافة التي بين هذه الاعمدة وقرطاجنة

مررنا بعد ذلك بنهر عظيم يدعى الكرينيس ثم وصلنا الى بحيرة بها ثلاث من الجزر كلها اكبر من صرته وبعد مسير يوم لمبارحتنا لهذه الجزر وصلنا طرف البحيرة فوجدنا حولها الجبال الشاهخة التي يسكنها المتوحشون ، ولما حاولنا النزول رمانا هؤلاء بالحجارة ومنعونا ، فاستمر سيرنا الى ان وصلنا الى نهر آخر عظيم جداً ، به عدد جم من التمساح ومن البقر المائي ، وعدنا بعد هذا الى جزيرة صرته

خرجنا منها وسرنا نحو الجنوب اثني عشر يوماً وكان الاتوبيون الذين يقطنون تلك السواحل يفرون منا كلما اقتربنا منهم وهم يتكلمون لغة لا يفهمها حتى المترجمون اللكسوسيون

(1) Troglodytes وبكلمة اخرى سكان المغاور .

الذين أخذناهم معنا

واقتربنا في آخر يوم من جبال شاهقة كللتها أشجار ذات أخشاب عطرة مختلفة الالوان ، ثم سرنا مع هاتيك السواحل يومين، فوصلنا الى خليج يوجد على ضفته اليسرى سهل رحيب ولما جن علينا الليل رأينا هنالك لهيب النـار يتصاعد من كل مكان تزودنا ماء ثم واصلنا سيرنا خمسة أيام ، فأشرفنـا على خليج هائل أعلمنا مترجمونا انــه يدعى قرن المغرب وبوسط ذلك الخليج جزيرة كبيرة فنزلنا رابعة النهار ، فلم نشاهد بها الا غابة تصاعدت أشجارها ، ولما خيم الليل شاهدنا نيراناً يتصاعد لهيبها وسمعنا اصوات المزامير والطبول والدفوف مع دوي عظيم [1] واستولى علينـا الهلع وأمرنا المنجمون بمغادرة تلك الجزيرة ، فبارحناها وابتعدنا عنها خائفين

سرنا أربعة أيام اخرى وكنا أثناء لياليها نرى لهيبـاً يتصاعد نحو النجوم ويتبين لنا في النهار أنه جبل عظيم يدعى مركبة الآلهة (جبل الكمرون الناري) [2] واستمر سيرنـا ثلاثة أيام اخرى بجانب أودية ملتهبة حتى وصلنا خليجاً يدعى بقرن الجنوب ، وبداخله جزيرة في وسطها بحيرة وفي وسط تلك البحيرة جزيرة أخرى يقطنها اناس متوحشون ، عـدد نسائهم يفوق عدد الرجال ، وأجساد هاتيك النساء مكتسية

(1) لاحظ الدقة التي يروي بها حانون هذه الرحلة العجيبة

(2) يفهم من هذه التفاصيل ان افراد الرحلة بلغوا الى سواحل افريقيـا الاستوائية .

شعراً ، ولقد حاولنا الاستحواذ على بعض الرجال ، فلم نستطع امساك أحد منهم لانهم كانوا يتسلقون الاشجار بسرعة غريبة ويدافعون عن أنفسهم دفاعاً شديداً ، انما تمكنا من امساك ثلاث نسوة ، لكنهن ظللن يعضضن ويخدشن الذين أمسكوهن وبقي اتباعهم فقتلوهن وأتينا بجلودهن الى قرطاجنة ولم نستطع ان نواصل سيرنا الى الامام لانه لم يبق لنا من الزاد شيء .

عن « قرطاجنة في اربعة عصور »
(ص 33 - 36)

الفصل الرابع

التنافس السياسي بين رومة وقرطاجنة

(264 - 146 ق.م.)

عرض لاحوال الدولتين الرومانية والقرطاجنية قبل النزاع - الحرب البونكية الاولى - فتح اسبانيا والحرب البونكية الثانية - النزاع بين مسينسا وقرطاجنة - الحرب البونكية الثالثة - اليوم الرهيب - العوامل التي ادت الى تخريب المدينة القرطاجنية .

ان الذين يبحثون في أحوال رومة وقرطاجنة قبل نشوب الخلاف بينهما ويمعنون النظر في نظامها الداخلي ومبادئهما الاستعمارية ثم يقفون على حقيقة آراء كل من هاتين الدولتين في الحياة ، لا يلبثون أن يروا بوضوح وجلاء أن التنافس بين قرطاجنة ورومة كان امراً طبيعياً وان الحروب التي سيدور الحديث حولها كان لا بد من وقوعها وليس هناك ما يدعو

الى الاستغراب ، كما يقول الاستاذ البارتيني الذي يقدر الفرق الشاسع بين رومة وقرطاجنة من جميع الحيثيات

وليتمكن القارىء الكريم من الالمام ببعض الفوارق التي اومأنا اليها يكفي ان نذكر ان القرطاجنيين كانوا يتعاطون التجارة والملاحة في حين ان الرومان كانوا يهتمون بالفلاحة ويعتمدون في ذلك على الممتلكات الواسعة التي تسلطوا عليها قهراً أضف الى هذا ان قرطاجنة كانت تكتفي ببسط نفوذها على قطعة ضيقة من الارض على ساحل البحر الابيض المتوسط لتقيم هناك بعض المستودعات التجارية ، بيد ان الدولة الرومانية كانت على العكس من ذلك لا تتورع من استخدام كل الوسائل الممكنة مشروعة كانت او غير مشروعة لتوسيع ممتلكاتها داخل البلاد التي صممت العزم على احتلالها ، مثلها في ذلك مثل ذلك الفلاح الصبور الذي يتحمل كل انواع الحرمان في سبيل توسيع ملكه بأنيضيف اليه بالتدريج وبعد العناء الطويل قطعة من الارض بعد اخرى [1]

كل هذه الحقائق جعلت من رومة وقرطاجنة دولتين متباينتي الآراء والمذاهب ، مختلفتي الاغراض والمقاصد ، لا يمكنهما بحال ان تتفقا في كثير ولا قليل ، بل تنافس كلاهما الاخرى وتعمل على ضحد شوكتها متى استطاعت الى ذلك سبيلاً . وفعلاً ، فقد تمكنت الدولة الرومانية بعد كفاح مرير

(١) « افريقيا في التاريخ » بقلم البارتيني - مارسي - ايفار (ص : 47)

من ان تبلغ امنيتها على اثر حروب دامية طويلة نشبت بينها وبين الحكومة القرطاجنية ، تلك الحروب التي عرفت في التاريخ بالحروب البونكية نسبة الى البونكيين (١)

قامت الحرب البونكية الاولى (264 - 241 ق.م.) بين رومة وقرطاجنة – كما كان المنتظر – لأسباب استعمارية ، ففي الوقت الذي كانت قرطاجنة مهيمنة فيه على شواطىء البحر الابيض المتوسط جعلت الحكومة الرومانية تسعى للاستيلاء على قسم من جزيرة صقلية ، وأرسلت اليها بالفعل عدداً من الجنود ، فارتابت قرطاجنة لهذا الامر وأرادت أن تحتفظ بالقسم الجنوبي من الجزيرة ، فبعثت اليها لفيفاً من الجنود ، فوقعت الصدمة الاولى بين الفريقين وكان النصر فيها للرومان ، فركبوا في سفنهم عازمين على محاربة العدو في افريقيا نفسها ، فاشتبكت المعركة مرة أخرى بين الخصمين ، ولكن النتيجة أسفرت عن انهزام الرومان (255 ق.م.) ، وأسر القائد ريقلوس (Regulus) ، فعظمت المصيبة على الحكومة الرومانية ، وسرعان ما استؤنفت المعركة ولم تنته الا بخضوع القرطاجنيين للدولة الرومانية التي استولت على جزيرتي صقلية وقريطش .

ولم يكن ذا نهاية الخطب الذي حل بحكومة قرطاجنة ، بل اصبحت مهددة في الداخل من قبل الجنود المأجورين وقد

(١) والبونكيون (Poeni) هم القرطاجنيون في اللغة اللاتينية .

ثاروا عليها اذ ذاك يطالبون بأجورهم، فعاثوا في البلاد وكادوا ان يتلفوا بعض المدن برمتهـا لولا ان تداركها أميلكار باركا (Amilcar Barca) ملبيـاً دعوة الحكومة القرطاجنية ، فأحسن الدفاع وقضى على الثائرين قضاء نهائياً.

على ان حكومة قرطاجنة أصبحت منهوكة القوى عـلى اثر هذه الحروب الدامية الطويلة ، خصوصاً وقـد انتهزت روما هـذه الفرصة فسلبت قرطاجنة جزيرتي كرسيكة وسردينيا هكذا كانت نتيجة هذه الحرب الاولى ، استيلاء روما على صقلية بأسرها وقريطش وكرسيكة وسردينيا أي على أهم جزر البحر الابيض المتوسط التي كانت خاضعة مـن قبل لنفوذ قرطاجنة. هكذا برهنت رومة بذلك على اغراضها التوسعية والغاية الاستعمارية التي كانت تعمل من اجلها ومما زاد في الطين بـلة بالنسبة للقرطاجنيين ان حكومتهم كانت – اثناء ذلك – قد انقسمت الى حزبين حزب يعمل لخوض غمار الحرب بكل وسيلة ويسعى لتوسيع الرقعـة الخاضعة لنفوذ قرطاجنة ، اما اعضاء هذا الحزب فقد صمموا عـلى ان يضعوا زمام الامر بين يد آل بركة المشهورة . وحزب يتألف مـن التجار والرأسماليين ، وهم لا يعملون الا مـن أجل السلم ليتمكنوا من التفرغ لمهامهم التجارية وجمع الاموال. وتضاربت افكار الحزبين وتباعدت، وفي الاخير انتهى بهما الامر الى انهما جعلا يسيطران على الحكومة القرطاجنية بالتناوب، فلا غرابة ان اصبحت الحكومة في حالة من التدهور منعتها من القيام

بأي برنامج مفيد، فلا هي تستطيع تنفيذ برنامج الحزب الاول، ولا هي بقادرة على تطبيق برنامج الحزب الآخر [1]

واتفق بعد ذلك بقليل ان ارسلت قرطاجنة القائد هاميلكار لفتح اسبانيا رغبة في ابعاده عن ام الوطن ، وقد راحت سمعته تعظم يوماً بعد يوم بسبب تلك الانتصارات الهائلة التي حققها ضد الجنود الثائرة فيدخل هاميلكار جزيرة اسبانيا ويضبط البلاد ضبطاً، ثم يجمع جيشاً يعمل على تدريبه بنفسه للانتقام — بعد -- من رومة عدوته الكبرى وازالتها من عالم الوجود تلك هي الخطة الهائلة التي صمم هاميلكار على تنفيذها مهما تكن الظروف والحواجز حتى ولو كان ذلك على يد ولده حنبعل (Hannibal) ، سر أبيه ، البطل الشهير الذي قطع على نفسه وهو ابن تسع سنوات فقط ان يكون عدواً لدوداً لروما حتى يقضي عليها او يموت [2]



القائد حنبعل

وتوفي هاميلكار دون ان يحقق الخطة التي رسمها لنفسه ،

(1) موجز تاريخ الجزائر للاستاذ كات ج. أ. (ص 82)
(2) « حنبعل » بقلم حسين مؤنس .

فخلفه حنبعل على رأس الجنود البربرية حسب ارادة أبيـه ، فكان اول عمل قام به استيلاؤه عمداً على صاكونت Sagonte احدى المدن الاسبانية التي كانت خاضعة للسلطة الرومانية ، فنكث بذلك المعاهدة المضروبة بين رومة وقرطاجنة، فطلبت رومة تسليم حنبعل من القرطاجنيين ، فأبوا ، فاشتعلت مـن ثم نار الحرب البونكية الثانية بين الدولتين (218 ق. م).

وتقدم حنبعل في 90,000 مقاتل واستولى عـلى شمال اسبانيا وجنوب فرنسا دون مقاومة عنيفة ، ثم اجتاز جبال الألب (Alpes) الوعرة في مدة خمسة عشر شهراً ، وتكبد هناك خسائر عظيمة في الرجال والخيل والفيلة حتى لم يبـق لديه بعد اجتياز الجبال المذكورة سوى 20,000 مـن المشاة و 6,000 من الفرسان و 21 من الفيلة [1] ومع ذلك فقـد انتصر على الرومان مرتين على ضفاف نهري «التيسان والتريبي» (Le Tessin et la Trébie)، وانضم الى صفوفه عدد من « الغال » (Gaulois) لم يخضعوا لسلطة الرومان الا منـذ زمن قريب ، ثم وصل الى جبال « الابنـان » [2] ، وبعدها الى بحيرة ترازيمان حيث تغلب على الجيوش الرومانيـة مرة أخرى ، وكان الرومان قـد اتبعوا في هذه الحرب خطة

(1) « رومة » بقلم الاستاذ مالي « Malet » .
(2) سلـلة جبلية ايطالية مشهورة تمتـد على طول 1300 ك.م. ويتراوح ارتفاعها بين 1000 و 1300 متر .

حكيمة ، وهي انهم لم يقدموا على مقاتلة حنبعل وجهاً لوجه حتى لا يعرضوا قواهم للتلف والهلاك ، بل اكتفوا بمناوشة العدو وعدم ترك الراحة له ، ورغم ذلك كله لم تضعف قوى حنبعل اذ قررت رومة ان ترسل لمقاتلته احد قـــوادها الموهوبين اسمه فابيوس (Fabius) ، فاشتبك الفريقـان في مكان يدعى كانة (Cannes) [1] وواصلا القتـــال بشدة وعنف ، وأبديا من الشجاعة الشيء الكثير غـير ان المعركة اسفرت نهائياً عن هزيمـــة رومانية عظيمة وذلك سنة 216 ق. م. فعظم الخطب على الرومانيين واختلط عليهم الحابـل بالنابل ، فلم يعلموا كيف يدرأون الخطر عنهم. وتقدم حنبعل الى جنوب رومة ولكنه لم يجسر عـلى محاصرتها او مهاجمتها نظراً لتحصيناتها المتينة واجتماع كلمة شعبها او لقلة زاد الجنود القرطاجنية انفسهم هذا ما يذهب اليه بعض المؤرخين في تعليل موقف حنبعل بالنسبة للعاصمة الرومانية وقداصبح منها قاب قوسين او ادنى ، على ان هناك من يرى غير هذا الرأي فيتساءل قائلاً

« ماذا صد حنبعل عن رومة ؟ كانت الحصون واهيـــة والجيوش منكسرة ولا يكلف الاستيلاء عليها أقل الجهد ولكن حنبعل كان يرجو شيئاً آخر كان لا يريد ان يقتل الفريسة دفعة واحدة ، وانمـــا يقطع اعضاءها عضواً عضواً

(١) مدينة قديمة كانت تقع في الجنوب الشرقي مـن شبه جزيرة ايطالية .

ويمزق أشلاءها شلواً شلواً ثم يدعها تموت »[1] ومهما يكن من أمر فان حنبعل لم يتقدم لمحاصرة رومة التي كان يرغب في الاستيلاء عليها ، فذهبت جهوده عبثاً ويروى بهذه المناسبة أن بعض قواده خاطبه اذ ذاك بقوله « نعم ، أنت تحسن الوصول الى النصر ولكنك لا تعرف كيف تستثمره »

وتطول المدة في ايطاليا بحنبعل ، ويبدو عجزه عن مهاجمة رومة ، فيطلب المعونة تارة من ملك مقدونية[2] (Macédoine) فيليب الخامس ، وتارة أخرى من شقيقه باسبانيا أو من قرطاجنة نفسها ، فلا يتوصل بشيء من ذلك نظراً لأن الرومان كانوا يسعون في اتلاف تلك الامداد قبل وصولها اليه[3] ، اذ ذاك جعلت آماله في الانتصار تتقلص والذي زاد في خطورة الحالة استيلاء الرومانيين على مدينة سيراكوز (Syracuse) الواقعة في جزيرة صقلية (212) ، وقد أصبحت لهم بمثابة صلة الوصل بين ايطاليا وافريقيا

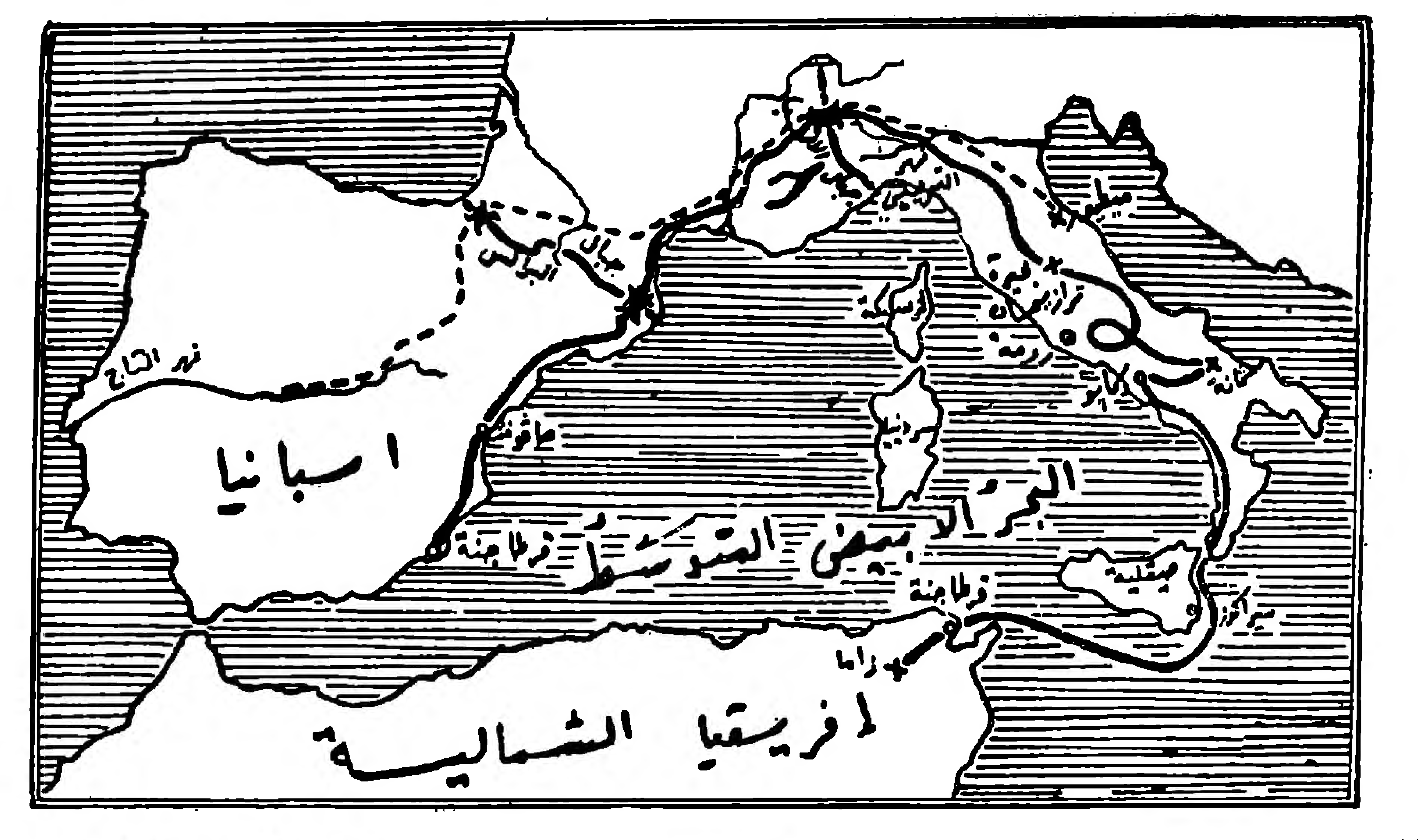
والواقع ان الرومان نصبوا — في الوقت نفسه — سيبيون الافريقي (Scipion l'Africain) قائداً على الجنود الرومانية فصمم سيبيون على مقاتلة القرطاجنيين في عقر ديارهم وذلك

---

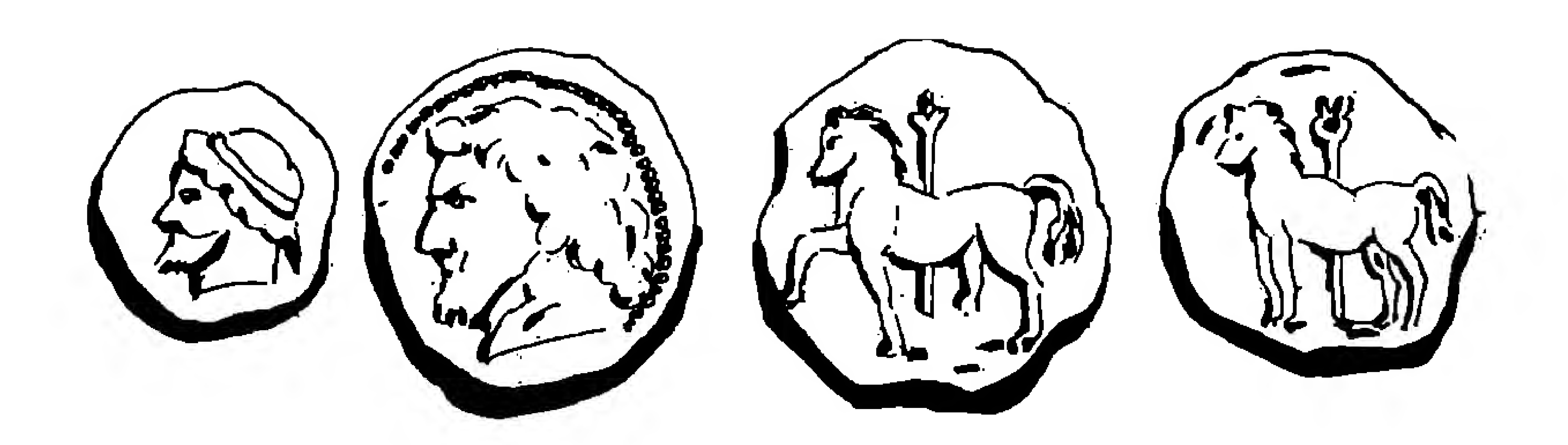
(1) حنبعل بقلم حسين مؤنس .

(2) «مقدونية» هي الناحية الشمالية من بلاد اليونان حكمها ملوك عديدون منهم فيليب الخامس وهو الذي قبل الآخر (221 - 178 ق. م.)

(3) كذلك اخذوا شقيقه أسيراً بالقرب من ميطور (Métaure) واحتزوا رأسه ورموا به في معسكر حنبعل .



الحرب البونيكية الثانية (218ـ 202) ـــــ الطريق الذى سلكه حنبعل في حملته على روما
..... الطريق الذى سلكه شقيق حنبعل لنجدة اخيه



نقود الملك مسينسا وعليها رسمه

(قرطاجنة في اربعة عصور ص 67)

بعد ما تمكن من ربط علاقات سرية مـــع بعض زعماء البربر كالقائد الأكبر مسينسا Massinissa [1] ولما علم أهل الحل والعقد بقرطاجنة ماعزم عليه سيبيون طارت عقولهم وهاجت أفكارهم وراحوا يصرخون « ان الوطن في خطر ! » واستغاثوا بحنبعل ، فأسرع حنبعل لمساعدتهم ، ونشبت المعركة بينــه

---

(1) أجمع المؤرخون على بكرة أبيـــهم أن مسينسا من اعظم زعماء البربر واشهر ملوكهم المعدودين . كرس حياتـه الطويلة في خدمة بـلاده والسهر على مصالح الشعب. اتخذ سائر الوسائل لنشر اللغة القومية بين افراد رعيته وعمل على بث روح الاخلاص والتضحية في نفوسهم . وأنشأ جيشاً بربرياً عتيـــداً واسطولاً قوياً كما انه ضرب السكة باسمه وادخل بعض التحسينات على اساليب الفلاحة في هذه البلاد وجلب لها الفنانين من ايطاليا واليونان ولقـــد سعى ـ من جهـــة اخرى ـ في ربط العلاقات السياسية والوديـــة مع رومة عدوة قرطاجنة ومع اليونان للوصول الى هدفه الوحيد وهو تحقيق الوحدة السياسية في المغرب .

وبين الرومانيين في مكان يدعى « زاما » (Zama)[1] في الجنوب الشرقي من قرطاجنة (202 ق.م.) ، ونظراً للمعاملة السيئة التي كانت قرطاجنة تعامل بها البربر مدة طويلة ، فان عدداً لا يستهان به من فرسانهم المغاوير انضموا بهذه المناسبة الى الجيوش الرومانية تحت قيادة الزعيم مسينسا ، فأسفرت الحرب عن هزيمة قرطاجنية شنيعة ، واليك الشروط القاسية التي أملتها رومة المنتصرة على عدوتها

1 – تعترف قرطاجنة بسيادة رومة المطلقة حتى على اسبانيا

2 – تسلم لها الأسطول والفيلة وتؤدي لها – فوق ذلك – غرامة حربية عظيمة

3 – تقيم مسينسا ملكاً على نوميديا[2] وتدفع له غرامة حربية كذلك

4 – تأخذ قرطاجنة على نفسها ألا تعلن حرباً ، بعد ، الا بمشورة رومة !

وهذه المعاهدة التي سلبت قرطاجنة جميع ممتلكاتها تقريباً وجردتها من أسلحتها وأضعفتها من الناحية المالية الى درجة بعيدة ، ثم جعلتها أخيراً تحت مراقبة مسينسا ، لا ريب أنها قررت بالفعل اضمحلال قرطاجنة بصفتها دولة عظيمة !

---

(1) يظهر ان المكان يطلق عليه اليوم لفظة « سوق أخراس » .

(2) هي المقاطعة الواقعة بين افريقيا وموريطانيا .

وعلى هذا فقد كان للحرب البونكية الثانية أثر بعيد في تاريخ المغرب القديم ، اذ حكمت للرومان في نزاعهم الطويل مع أهل قرطاجنة وجعلت من رومة قلب البحر الأبيض المتوسط النابض ، ومن افريقيا أرضاً تابعة لها ليس الا

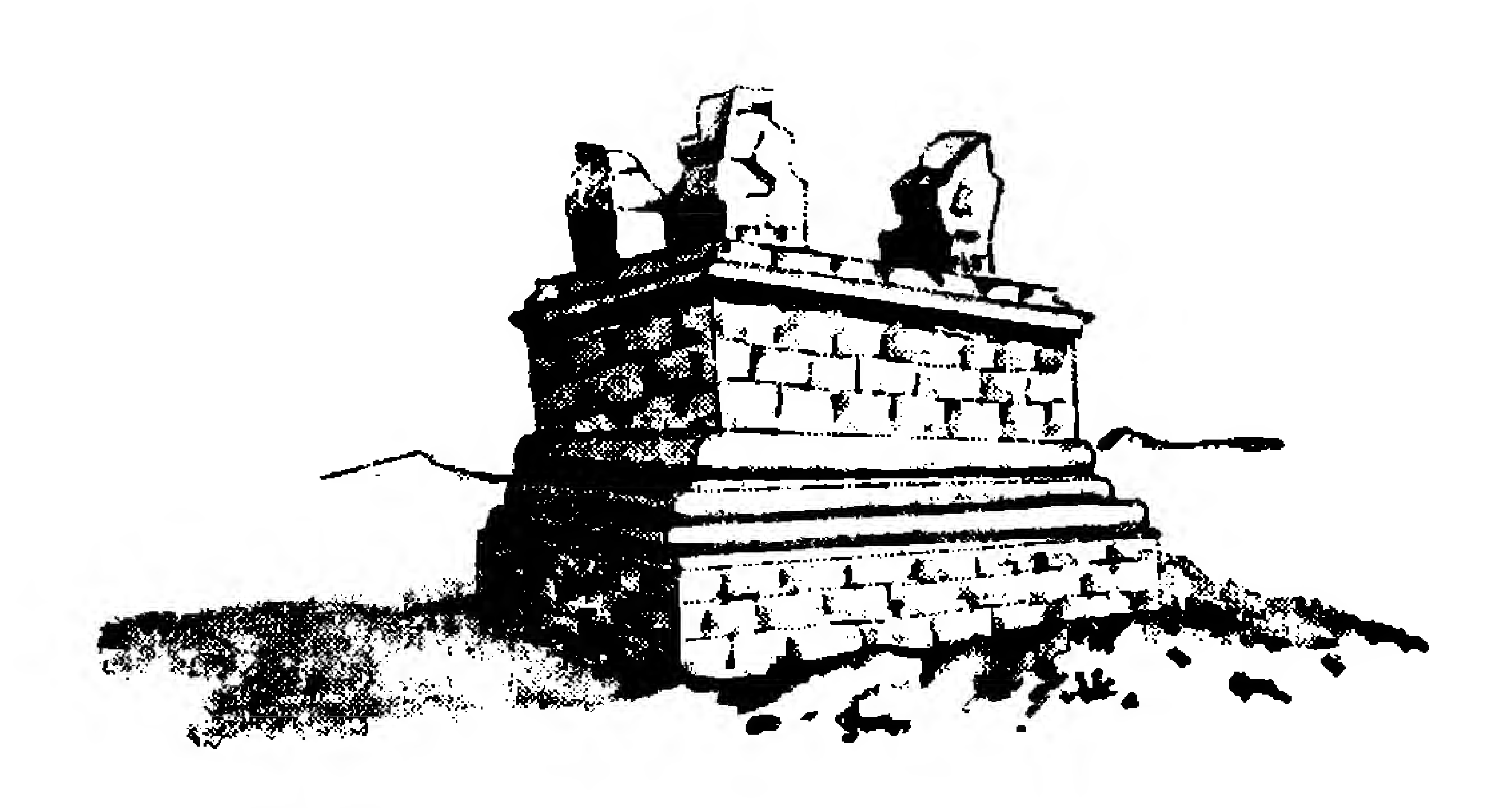
وكان الشقاق — اذ ذاك — سائداً بين أعضاء الدولة القرطاجنية كما هو منتظر بعد كل انهزام من هذا النوع، فتنبه حنبعل لما عسى أن ينجم عن تلك الحالة السيئة ونصب نفسه حاكماً مستبداً على البلاد ، وجعل يسعى في اعادة نظام الدولة وهو ينوي من وراء ذلك كله اشهار الحرب على عدوته رومة والأخذ بالثأر لأبناء وطنه لكن رومة التي لم تخل أرض افريقيا من أصدقائها الكثيرين كانت قد أخبرت بما عزم عليه القائد حنبعل ، فجدت في طلبه فاضطر هذا الأخير الى أن يجعل حداً لحياته بأن امتص قطرات من السم كان قد احتفظ بها لمثل تلك الساعة وهو يقول « لتسترح رومة اذا كان لا يرضيها أن تترك شيخاً في الستين يموت على مهل » [1]

وتروح رومة تحرض مسينسا على مهاجمة قرطاجنة بعد خروج حنبعل من الميدان ، ثم تغريه وتبالغ في الاغراء ، لكن القرطاجنيين ضبطوا أنفسهم ، فلم يسلوا السيف على الزعيم البربري عملا ببنود المعاهدة السابقة ومراعاة لشروط عام 202 ، الا أنهم عندما تفاقم أمر مسينسا رأوا من المعقول

---

(1) « حنبعل » لحسين مؤنس .

أن يوفدوا رسلاً الى رومة يشكون اليها سوء حالتهم مع هذا الأخير ، فقررت رومة ارسال لجنـــة لدرس القضية في عين المكان ، بقيادة رجل من أشد خلق الله عـداوة للقرطاجنيين ألا وهو كاطون الملقب بالحكيم (Caton Le sage) ، نعم كان كاطون يكره قرطاجنة والقرطاجنيين كراهة ما عليهـا من مزيد، وكان متشبعاً بالفكرة القائلة بأنه لا خير للرومانيين في بقاء قرطاجنة قائمة الذات على ساحل البحر الأبيض المتوسط وهو الذي اعتاد أن يختتم كل خطبة مـــن خطبه الرنانة بهذه الكلمة المأثورة « لا بد من محق قرطاجنة وازالتها مـــن عالم الوجود » Delenda est Carthago فلما وصلت اللجنة الآنفة الذكر الى أرض قرطاجنه ، أرادت أن يكون حكمها نهائياً في النزاع القائم بين قرطاجنة ومسينسا او قـــل بينهما



قبر الزعيم مسينسا عن كتاب « افريقيا الشمالية في التاريخ »

وبين رومة أما مسينسا فقد قبل الاقتراح معتقداً أن رومة سوف لا تعمل الا ما فيه مصلحته

واما قرطاجنة التي شعرت بالخطر فقد رفضت كلياً رغبة في المحافظة على حريتها واستقلالها ، ثم أعلنت الحرب على مسينسا ، فاغتنمت رومة هذه الفرصة التي كونتها بنفسها كما رأيت ، وأشهرت السيف على عدوتها وهي في حالة لا تدري معها هل واجبها الوطني يقضي عليها بأن تعين مسينسا بنية واخلاص . والسبب في ذلك أن رومة كانت تعلم علم اليقين أن الزعيم البربري قادر على التغلب على خصمه ، ولكنها كانت تعلم من جهة أخرى أنه اذا استولى على العاصمة القرطاجنية لا بد من أن يحافظ عليها ، فتصبح قرطاجنة بذلك أقوى مما كانت عليه ويصير مسينسا ملكاً يعتد به ويخشى شره في كل حين ...

واشتعلت الحرب حينئذ للمرة الثالثة بين رومة وقرطاجنة فتقدمت الجيوش الرومانية ونزلت بالتراب التونسي سنة 149 ق.م. تحت قيادة القنصل ماريوس (Marius) ، وخاف القرطاجنيون على أنفسهم ، فطلبوا منه الصلح ، فأجابهم الى طلبهم على أن يسلموا اليه أسطول قرطاجنة وجميع أسلحتها، فقبلوا ثم إن الرومان لم تقف غطرستهم عند هذا الحد ، بل طلبوا منهم – بعدما سلبوهم أسلحتهم – أن يغادروا المدينة – عنوان مجدهم ورمز عظمتهم التي طالما خاطروا بأنفسهم من أجلها ، فيبتنوا مدينة أخرى قريبة منها ، غير محصنة !

يا للعار ! هل هناك من يرضى بهذه الشروط الجائرة الا من تعوّد عيشة الذل والاحتقار ؟! كلا ، فهذه نفوس القرطاجنيين تفيض ، فيقومون قومة رجل واحد ما بين كهول وشيوخ وأطفال ونساء وفتيات مصممين كلهم على الدفاع وقد هان الموت في أعينهم ويبدي النساء والفتيات بنوع خاص تضحية كاملة وبسالة نادرة وثباتاً في الدفاع لم يسبق له نظير في هذه المأساة المؤلمة العظيمة

تقدمت الجيوش الرومانية لمحاصرة قرطاجنة تحت قيادة سيبيون اميليان (Scipion Emilien) سنة 146 ؛ واستمر الحصار ستة أيام متوالية كانت نتيجته تخريب العاصمة وتدميرها والقضاء على مدنية من أرقى مدنيات العالم القديم !.

فاذا راجعنا التاريخ – والتاريخ كله دروس ومواعظ – للوقوف على أسباب هذا السقوط رأيناه يرجع الى عوامل شتى منها سوء سياسة القرطاجنيين مع البربر ووجود نزاع دائم مستمر بين أفراد الحكومة القرطاجنية من شعبيين وأشراف ، كلهم متهافتون على مذهب المادية ، كما يعزى أيضاً ذلك السقوط الى نشوء فكرة سياسية بين البربر ترمي الى الحصول على وحدة البلاد وكذلك الى سوء نظام الجيش القرطاجني .

ولهذا السبب الأخير أهمية خاصة في انهيار قوة القرطاجنيين لأن الجيش كان ، اذ ذاك ، يضم عدداً كبيراً من الأجانب لا يستطيعون طبعاً بحكم وضعيتهم الأجنبية أن يدافعوا عن قرطاجنة بكل ما ينبغي من التضحية والاخلاص .

اليوم الرهيب

دام الحصار [1] على تـــلك الشدة حولاً كاملاً ، وتجرع القرطاجنيون أثنـــاء ذلك أنواع الآلام والأسقام ، وكانوا يزدادون شدة في المقاومة وثباتاً في الدفاع كلما ازداد الرومانيون عزيمة على محق المدينة وتصميماً على الاستيلاء عليها وتدميرها . وجاء عام 146 ، وأزفت ساعة خروج تلك الروح المحتضرة من الجسد المغربي ، فجهز سيبيون [2] فيالقــه وأرسلها بعنف على المدينة ، واشتعلت نيران ملحمة هي من أكبر معامــع التاريخ شدة وفظاعـــة ، وكان القرطاجنيون رجالاً ونساء وصبية يحملون السلاح ويدافعون لكن الأسوار سقـــطت تحت ضربات الرومانيين ودخلوا المدينـــة ، وكان يوماً هائلاً وكانت ليلة رهيبة ، وكانت الأشلاء تتطاير كأوراق الخريف ،

---

(1) حصار قرطاجنة .

(2) سيبيون اميليان الآنف الذكر

وكانت الدماء تملأ الأزقة والساحات ، فلا تسمع الا الأنين وحشرجة الموت ولا ترى الا الخراب ولا تبصر الا سيلان الدماء

واشتد دفاع القرطاجنيين ، فكان الرومانيون يحتلون المدينة قسماً قسماً بعد محق أهله المدافعين ، وبعد تكبد أليم الخسائر ، واستمر ذلك ستة أيام وست ليال . ولما كان اليوم السابع دخلت قرطاجنة العظيمة في حكم التاريخ

بقي القائد ازربعل [1] حياً بعد ممات رجاله ، فالتجأ الى هيكل قديم ، ومعه رجال من قومه وزوجته وولداه ونحو ألف من الفارين القرطاجنيين ، وقد فقدوا كل أمل في النجاة فتولى القائد الصغار في آخر ساعة وسلم نفسه ، وافضيحتاه للرومان ، وشاهد القرطاجنيون ذلك ، فأوقدوا النيران في الهيكل وماتوا

النار تلتهم الأسوار حولهم والسيف يحصد منهم كل جبار
رأوا طريق نجاة فتحت لهم وإنها لطريق الخزي والعار
والحر لا يرتضي ذلاً ومسكنة ففضلوا الموت بين السيف والنار

وكانت زوجة ازربعل ، قبل موتها ، قد وقفت تجاه زوجها على درج الهيكل وزوجها بين يدي الرومان، وحملقت فيه بعينين جمعتا كل الغيض القرطاجني وصاحت به : « اذهب

---

(١) حاكم مدينة قرطاجنة وقائد الجيش القرطاجني الباسل .

أيها النذل ذليـلاً ، ليفتخر المنتصرون بأسرك ! » ثم خنقت بيديها فلذتي كبدها وألقت بهما وألقت بنفسها إثرهما في وسط اللهيب ، النار ولا العار ، وهكذا كان ختام آخر صفحة في التاريخ القرطاجني

عن « قرطاجنة في أربعة عصور »
(ص 76 - 84)

الفصل الخامس

افريقيا الرومانية

(146 ق. م. — 429 م.)

نتيجة الانتصار - يوقورطا بين رومة وبوكس - يوبا الثاني : مكانتــــه بالنسبة لملوك البربر وأعماله الهامة - التنظيم الاداري في أيام الاحتلال الروماني - الحياة الاقتصادية - الحيـــــاة الاجتماعية - ظهور المسيحية بالمغرب ومفعولها في البربر - تأثير المدنية الرومانية فى الأهالي - الحياة الأدبية والفنيـــــة ترتوليان وأوقستان .

بمجرد ما احتلت بـلاد المغرب بادرت رومة الى تقسيمها تقسيماً ادارياً ، فجعلتها ثلاثة أقسام وهي

I — افريكا اللاتينية (Provincia Africa) وهيعبارة عن معظم البـلاد التونسية ، وكان الرومان يديرونها رأساً

2 – نوميديا (Numidia) ، وتمتد من التراب التونسي الى قسنطينة (Cirtha) وتنقسم هذه المملكة الى قسمين ، أحدهما تحت تصرف مسبسا [1] ابن مسينسا (146 - 118 ق.م.)والآخر تحت تصرف ابن أخيه يوقورطا (Jugurtha)

3 – موريطانيا (Mauretania) التي وضعوها تحت نظر القائد البربري بوكوس (Bocchus) [2] ثم فكر الرومان في انشاء عاصمة تستقر بها الحكومة ، وبعد امعان النظر رأوا أنه يكون من المعقول احياء مدينة قرطاجنة نظراً لحسن موقعها ، فأخرجت قرطاجنة من جديد الى عالم الوجود وسموها « جنونيا » حتى لا تطرق سمعهم مرة أخرى لفظة قرطاجنة المشؤومة !

على أن الرومان لم يبسطوا نفوذهم على افريقيا الشمالية بأسرها كما قد يخيل اليك ، انما كانوا يحتلون ، قبل كل شيء ، الأراضي التي لها فائدة عسكرية أو اقتصادية

وأما المناطق الواقعة تحت تصرف الرومان ومراقبتهم فهي التي كانت توجد بين ساحل البحر وخط مجاور للنواحي الصحراوية يدعى عندهم بالليمس (Limes) ، هو عبارة عن طريق معبدة هائلة أو خندق عميق أو سلسلة قصبات كان

---

(1) كان مسبسا هذا يحاول ان يضرب على غرار ابيه ويسعى بجميع الوسائل ان يقتدي بآرائه واعماله الا انه في الواقع كان دون والده ذكاء ومقدرة

(2) قرطاجنة في اربعة عصور (ص 79) .

يسكنها قدماء المحاربين المكلفين بحفظ الأمن ، فقد كانت هناك طبقات لم تخضع بعد للسلطة الرومانية وقد تحدثهم أنفسهم بالانقضاض من حين لحين على سكان المدن الآمنين ...
وكان هذا الليمس يذهب من طرابلس ، فيعرج على البحيرات التونسية وجبال الأوراس ، ثم يمر جنوب غرب بسكرة ، فيجتاز قرية بو سعادة ، وبعدها يقطع وادي شلف ويربط النواحي المذكورة بتاخمارت (Cohors Breucorium) والزفيزف (Altava) وتلمسان (Pomaria) ومغنية (Numerus Syrorum) ، وبعد ذلك يصعد الليمس الى الشمال فيمر على تازة وينتهي أخيراً الى جنوب الرباط [1] بعد ما يعرج على طنجة (Tingis) ووليلة (Volubilis) [2].

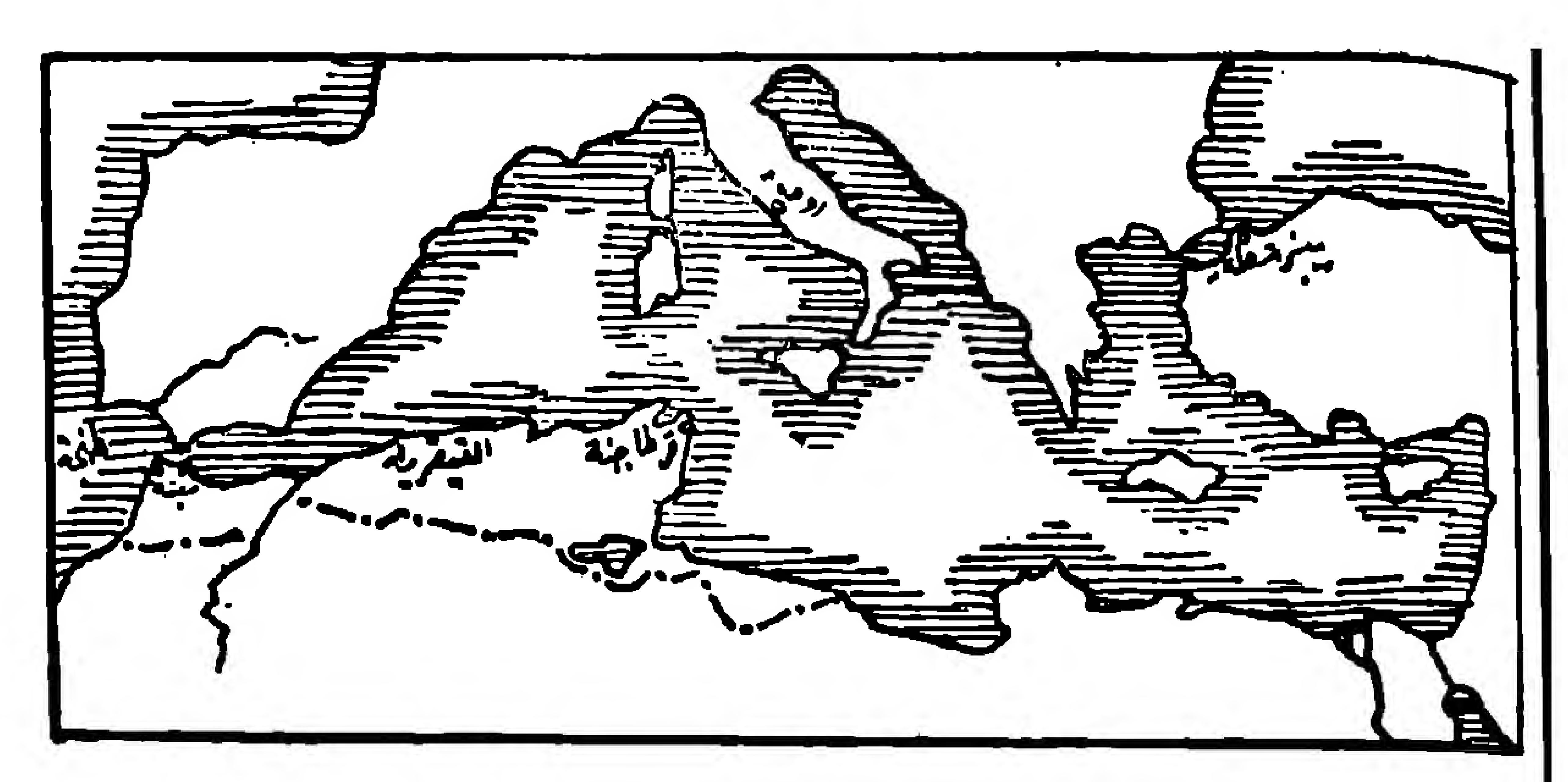
ومهما تحمل الرومان من مشاق في سبيل مراقبة البلاد مراقبة شديدة للقضاء على مميزات الشعب المغربي ، الا انهم لم يتمكنوا من اخضاع ملوك المغرب لارادتهم وحملهم على الانقياد لهم خصوصاً اذا كانوا كيوقورطا من الملوك المرموقين الذين وطنوا النفس على الكفاح مهما كلفهم من ثمن في سبيل مصلحة الشعب

أجل ، لم يخضع يوقورطا للسلطة الرومانية ، بل لم يكن

---

(1) يستطيع المتجول ان يشاهد قطعة من ذلك الليمس على الجانب الأيسر من الطريق المؤدية الى الدار البيضاء على بعد ستة كيلومترات تقريباً من مدينة الرباط

(2) « افريقيا الشمالية في التاريخ » (ص 72) .



تداد النفوذ الروماني في افريقيا الشمالية اثناء القرن الثالث الميلادى

يفكر الا في العمل لفائدة شعبه ، كان ـ والحالة هذه ـ يضرب على غرار مسينسا العظيم ويسعى مثل سلفه الصالح في توحيد المملكة المغربيـة واعادة مجدها الماضي ، ولذلك راح يبسط نفوذه – قبل كل شيء – على جميع بلاد نوميديا بعدما اغتال ملوك نوميديا الشرقية من أبناء عمه أدربال وحمصال

وتخاف رومة أن يتم له أمر المغرب بأسره ، فتعلن عليه الحرب مرة أخرى ، ويخرج الرومان من المعركة منتصرين ، فيضطر يوقورطا الى الفرار والنزول عـلى صهره [1] بوكوس (Bocchus) ملك موريطانيا، ولكن الخائن بوكوس يخاف على عرشه ، ويتسرب الجشع الى نفسه الدنيئـة ، فيسلمه

---

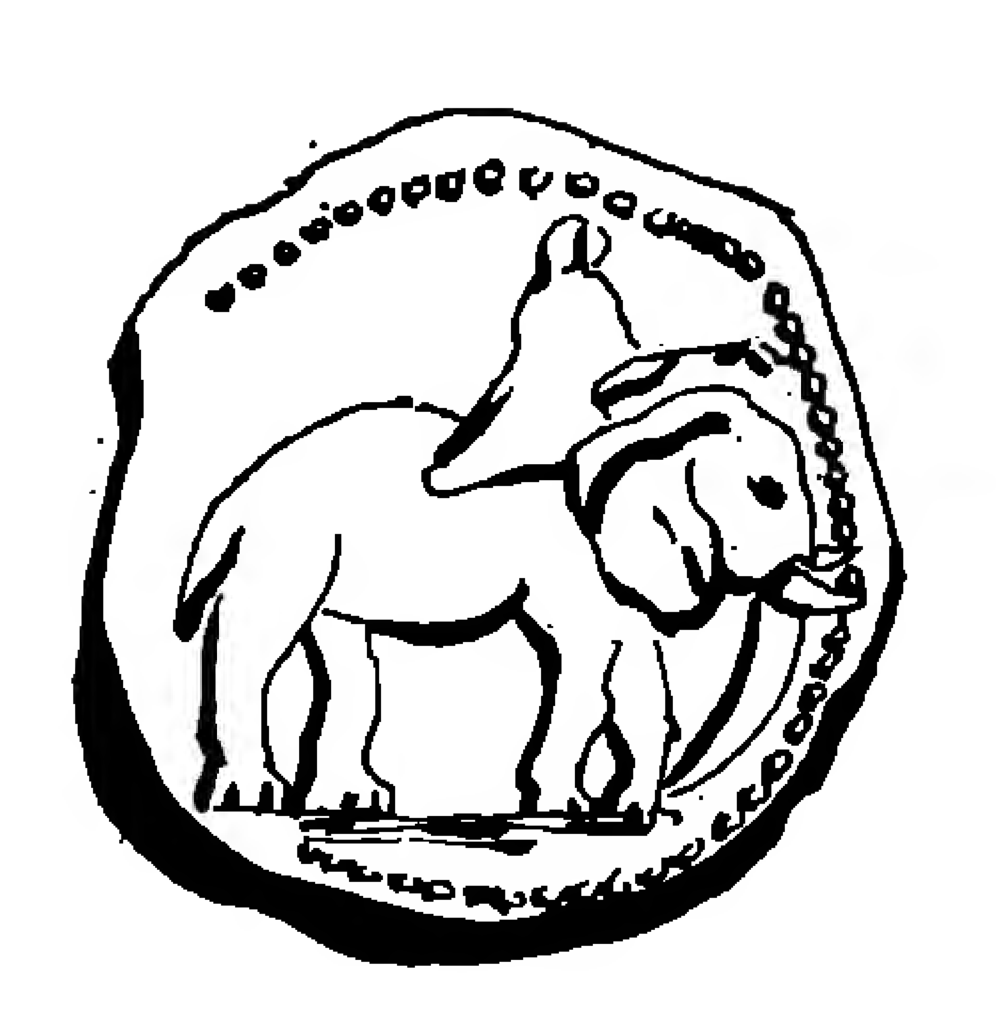
(1) وكان والد زوجته

– وافضيحتاه ! – لسيلا (Sylla) خليفة ماريوس القائد الروماني المشهور ولا يلبث الرومانيون أن يقدموا للملك بوكوس جائزة ذات قيمة واعتبار على خيانته وذلك بضم الجهة الغربية من منطقة نوميديا (الجزائر الحالية) الى موريطانيا الطنجية جزاء له على خيانته ! ولما توفي بوكوس الذي سعى في توسيع مملكته بالصورة التي رأيت ، حاول الامبراطور الروماني أوقست (Auguste) أن يجعل من موريطانيا الغربية بلاداً مستقلة ، وأجلس على عرشها ملكا من أشهر ملوك البربر ، نظراً لما أنجزه من اصلاحات وما قام به من أعمال جليلة في سبيل مصلحة بلاده، هو يوبا الثاني Juba II [1]

وقد توثقت العلاقات بين يوبا الثاني وبين كايوس قيصر ، ولي عهد الامبراطورية الرومانية الى درجة أن كايوس حمله معه الى المشرق وزوجه هناك من الأميرة كليوبترا (La Princesse Cléopâtre) ابنة انطوان ، وكليوبترا ملكة مصر

وكان يوبا الثاني حاد الذهن ، ثاقب الفكر ، عارفاً بما له من الحقوق وما عليه من الواجبات نحو وطنه ، وقد بذل جهوداً كبيرة – شأن الملك مسينسا من قبله – لتنشيط الحياة

(١) يعتبر يوبا الثاني بحق من اكبر ملوك البربر الذين كرسوا حياتهم كلها في خدمة بلادهم ، وقد حكم مدة خمسين سنة ولم يفكر اثناء حياته الطويلة الا فيما يعود على شعبه الوفي بالخير والهناء ، وقد عاش من سنة 25 ق.م حتى سنة 40 ب.م.





نقود ضربها الملك يوقورطا

الاقتصادية واستثمار الأراضي الفلاحية بالوسائل العصرية الحديثة ومما يزيد في شأن هذا الملك بالنسبة لملوك المغرب الأقدمين انه كان فناناً مولعاً بدراسة شؤون الهندسة ، ميالاً الى وضع التصميمات العمرانية الفنية الدقيقة. ولقد جعل من مدينة شرشال قاعدة ملكه ، وسماها القيصرية (Cesarea) باسم الامبراطور قيصر الآنف الذكر اعترافاً له بالجميل، وجلب لعاصمته مختلف الفنانين من مصر واليونان ، فشيدوا فيها من القصور الجميلة والهياكل الفخمة ما جعلها بحق محط أنظار الملوك والأمراء ، كما جلب لها عدداً من الكتاب والشعراء والفلاسفة

وعني هذا الملك عناية خاصة بنشر الثقافة الرومانية واليونانية في سائر أنحاء البلاد ولا غرابة في ذلك فقد كان مولعاً بالبحث والتنقيب ، شغوفاً بالمطالعة والدرس ، فلا يفتر عن الكتابة والتأليف والواقع أنه ألف عدة كتب لها

قيمتهـــا واعتبارها في مختلف العلوم والفنون مثل التاريخ والجغرافية والفلسفة والموسيقى، الا أن يد الاهمال لعبت بهذه الكتب كلها ، فلم يصل الينا ولو كتاب واحد من هذه الثروة الأدبية القيمة (1)

وعاشت البلاد مدة من الزمن ترعى في بحبوحة من العيش الرغيد التي ان هبت عليها ريح الفتنة وشق عصا الطاعة عـلى الرومانيين أحد سكان نوميديا اسمه تاكفاريناس(Tacfarinas) كان قـد أدى الخدمة العسكرية في الجيش الروماني ، وظل رافعاً راية العصيان مدة مـــن الزمان ، ولكن تاكفاريناس رغم ما أبداه من الجهود لتحقيق أمنيته الوطنية الغالية ومها كانت الاعانة التي كان يتسلمها من القبائل البربرية في المنطقتين الشرقية والغربية معاً ، لم يستطع متابعة القتـــال ، واضطر آخر الأمر الى الاستسلام للعدو ، والقى السلاح بين يديه

ومات الزعـــيم تاكفاريناس ، فاطمأنت قلوب الرومان وهدأت نفوسهم بعد أن لم يبق من يقوى في البلاد على مقاومتهم وهكذا خرت عزائم الـبربر واضمحلت آمالهم في الاستقلال الى حين .

واذ ذاك بسطت رومة سلطانها المطلق على جميـــع بلاد المغرب لتجعلها مستعمرة لها بكل ما في هاته الكلمة مـــن مدلول ، وبعثت اليها طائفة من المستعمرين من أبناء جلدتها

(1) افريقيا الشمالية في العصر القديم (ص 60) .

يعملون على تطبيق الخطة التي رسمتها لنفسها باستغلال المغرب أيما استغلال

وبذلت الحكومة الرومانية كل مستطاع لاقرار الأمن في البلاد ، فتمكن المستعمرون من القيام بمهمتهم الاستغلالية على أبعد وجه ، واستثمروا أراضيهم الواسعة بكل الوسائل الممكنة هذا من جهة ومن جهة أخرى سهرت الحكومة المركزية على اقامة نظام اداري محكم في افريقيا الشمالية كلها ، وعهدت بادارة الشؤون العمومية في البلاد الى حاكم يحمل اسم البروكنسول (Proconsul) ، وكانت البروكنسول هي تطبيق القوانين واقرار العدل بين الأهالي ، كما كان مكلفاً من طرف الحكومة المركزية بجمع الضرائب ومراقبة نفقات الدولة.

والواقع ان هذا الموظف الكبير [1] كان يستعين على القيام بمهمته الشاقة بموظفين آخرين من الرومان والبربر يتمتعون بسلطة مطلقة على الأهالي . وكان هؤلاء الأهالي المساكين يتألمون من شتى الضرائب المفروضة عليهم فرضاً كالضريبة الشخصية والضريبة الفلاحية وغيرهما

وكان البروكنسول يعيَّن في وظيفته لمدة عام واحد على أن الحكومة كثيراً ما كانت تقره مرة ثانية وثالثة في نفس

(1) كانت رواتب الموظفين الكبار مرتفعة جداً وكان البروكنسول مثلاً يتقاضى من الحكومة سنوياً ما لا يقل عن مليون « سيترس » والسيترس قطعة نقدية رومانية من الفضة .

الوظيفة كلما أحسن القيام بمأموريته الرسمية

أما الجند المرابط بتراب المغرب من أجل اقرار الأمن ، فلم يكن عددهم كبيراً بالنسبة للمساحات المحتلة ، وهذا أوضح برهان على تفوق الرومان من الناحية السياسية وفي ذلك أيضاً دليل بيّن على دقة نظمهم الادارية

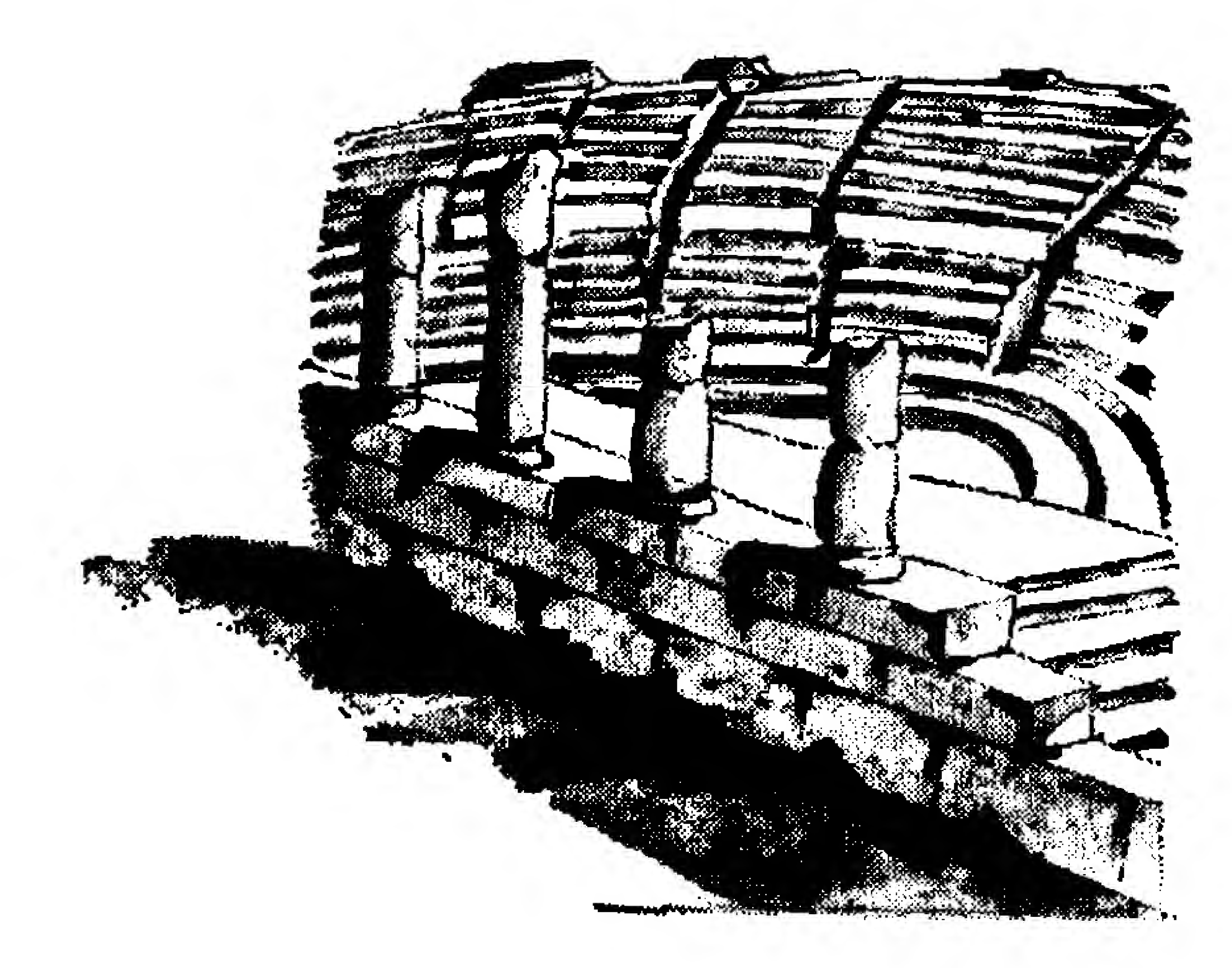
وكان الجيش الروماني يتألف خاصة من الجنود المعاونين ومعظمهم من اسبانيا وبرنطة وافريقيا نفسها ، وكان عدد هؤلاء الجنود المأجورين قليلاً في بداية الأمر ، ثم صار يزداد يوماً بعد يوم حتى أصبح معظم الجند من البربر ، كما كان الحال في أيام الامبراطور أنطوان Antoine l'Empereur (161 - 138)

وكان الرومان يقتصرون – كما أسلفنا – على احتلال المراكز التي لها أهمية عسكرية ولا يختلطون إلا قليلاً بسكان البلاد الأصليين ، على انه كثيراً ما كانوا يستقرون بعد قضائهم لمدة التجنيد بنفس الناحية التي أدوا فيها الخدمة العسكرية ، بل كانوا يتزوجون أحياناً من نساء بربريات من تلك الجهات . وليس من شك في أن هؤلاء الجنود ساعدوا نوعاً ما على نشر المدنيةالرومانية في الأوساط الأهلية البسيطة،فأثروا في الأهالي بلغتهم وعوائدهم ونظمهم ومعتقداتهم ، ومعلوم أن تلك اللغة والعوائد والنظم والمعتقدات كلها رومانيه لأن الذين حملوها الى الغرب استمدوها من الرومان أنفسهم

ولم تكن أعمال الجند منحصرة في عملية اقرار الأمن وقمع

الثوار ونشر المدنية الرومانية فى البلاد ، بل كانت الحكومة تعهد اليهم ، من حين لحين ، بمهمات اصلاحية كبرى كمد الطرقات وبناء الحمامات والملاعب والمراسح والقناطر والهيا كل. وكلنا نعلم – بناء على ما نشاهده في بلاد المغرب من آثار رومانية رائعة – إن الرومان كانوا مشغوفين الى حد بعيد بالبناءات الفخمة الشاهقة ، ولذا أكثروا منها وتفننوا في وضعها ما شاء لهم أن يتفننوا

وقد اهتمت تلك الجنود أيضاً بانشاء طرق مرصفة عريضة كانت تصل بين المدن الكبرى كالطريق الذاهبة من طنجة الى سلامارة بالعرائش أو من طنجة الى وليلة بمنطقة موريطانيا ، أو كالطريق التي كانت تصل بين تلمسان ووليلة على طريق

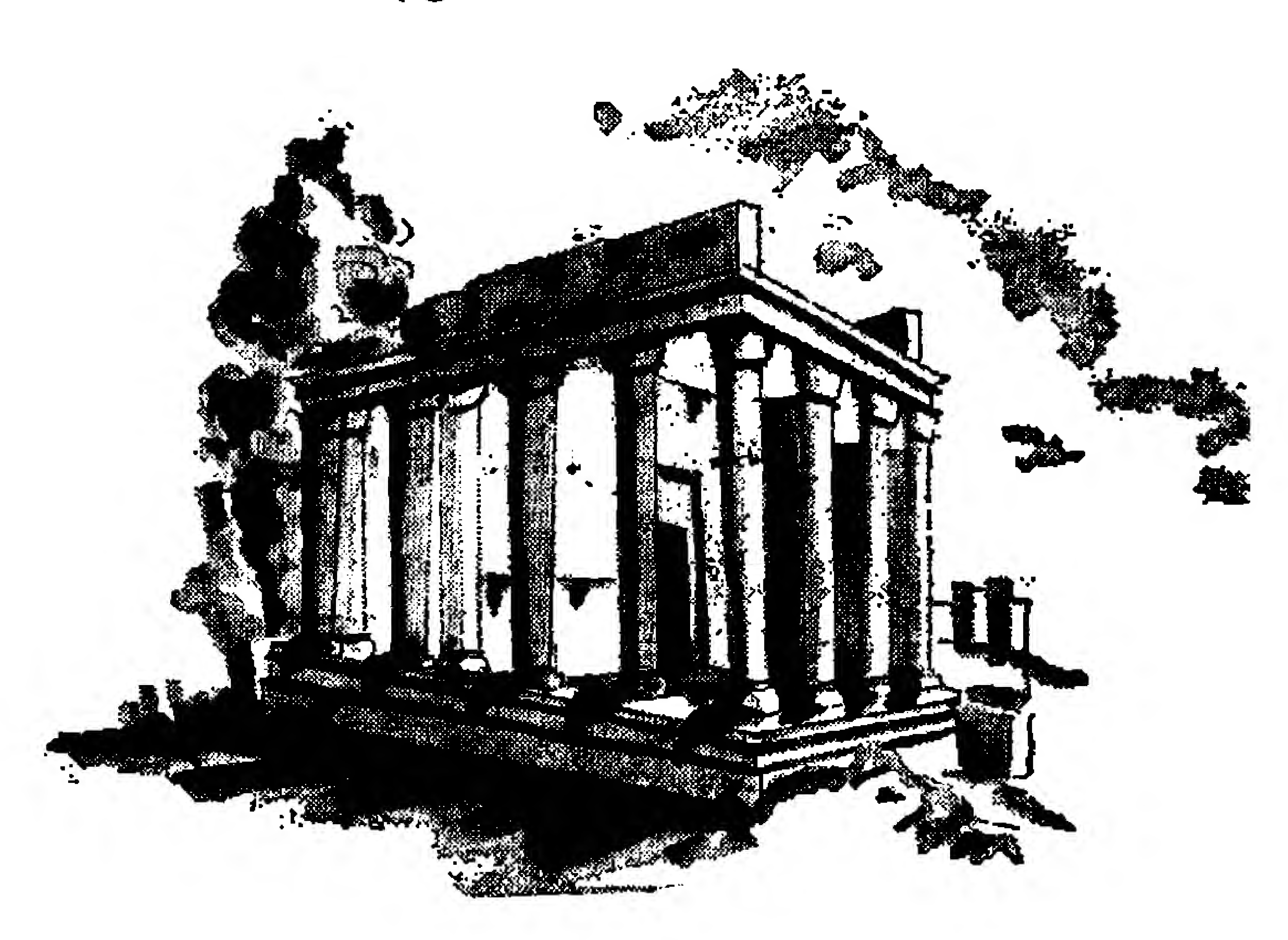


مسرح روماني بمدينة الجميلة (الجزائر)

تازة . وكانت هناك طريق كبرى تجمع بـين قرطاجنة وسرتا Cirtha (قسنطينة) مارة على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

وقد وضعت هذه الطرق أول مرة لأسباب عسكرية وبعد ذلك استخدمت لغاية تجارية والواقع أن الرومان أبدوا مجهودات جبارة في انشائها ، ويكفينا دليلاً على ذلـك أن الطريق الكبرى التي كانت تربط بين طرابلس وتافنة كان يقدر طولها بمائتين وألف كيلومتر ، هذا دون الطرقـات العمومية الثانوية التي كانت تصل بين أجزاء البلاد من الشمال والجنوب.

ولم يقف الرومان عند هذا الحد ، بل انتبهوا الى ضرورة حفر الآبار ـ نظراً لقـلة الأمطار ـ ووضع السقايات وجلب



هيكل روماني بتبيسة

مياه العيون الطبيعية الى المدن الرومانية العامرة وغني عن البيان أن تلك الملاعب والقناطر والحمامات والطرقات وغيرها من المؤسسات التي وضعها الرومان لفائدتهم الخاصة ، قبل كل شيء ، لم تقم الا على الضرائب التي كان الرومان يستخلصونها من الوطنيين والمبالغ الهائلة التي كان الاغنياء من الرومان يقدمونها طوعاً للحكومة أملاً في نيل الوظائف الشرفية الكبرى وطلباً في الشهرة ليس إلا وكانت الحكومة تأمر إذ ذاك برسم أسماء أولئك المتبرعين على جدران الهياكل تخليداً لأعمالهم البرية

على أنه اذا رجعنا الى الاكتشافات الحفرية الرومانية التي تذكر تلك التبرعات نرى أن عدداً من تلك النقوش يرجع عهدها للقرن الثاني الميلادي، مما يدلك على أن الحالة الاقتصادية كانت إذ ذاك تبعث على الاطمئنان إذ لا تتيسر التبرعات طبعاً إلا مع اليسر ، وفي تعددها دليل واضح على أن الطبقة الرومانية المتوسطة كانت تحيا في ذلك الزمان حياة مرضية بوجه عام

ولكن ما بال هذه النقوش أصبحت قليلة نادرة الوجود في عهد الامبراطور ديو كليسيان (Dioclétien) ؟ أفلأن الناس تبدلت نظريتهم في الحياة على أثرانتشار الديانة المسيحية في المغرب ؟ أم لأن حالتهم المادية تدهورت الى حد أنهم أصبحوا لا يستطيعون أن يتبرعوا بما كانت تجود به أريحتهم في القرن السابق !؟.

الواقع أن انتشار الديانة المسيحية في المغرب كان من العوامل الأساسية التي أدت الى تحريف نظرية اولئك الثريين والأغنياء عما كانوا يقومون به من أعمال عمرانية بقصدالتباهي والافتخار ، ذلك أن الدين المسيحي ينهى ـ كما هو معلوم ـ عن التباهي بالمال والجاه وحتى بالقوة البدنية ، فكيف يسمح لمعتنقيه أن يتبرعوا بما حباهم الله به من ثروة طلباً للشهرة وابتغاء مرضاةالناس مندون الله الذيخلقهم وخلق كل شيء؟ أضف الى ذلك أن انتشار الديانة الجديدة وتهافت الطبقة المحرومة عليها من السكان ـ كما سنتحدث اليك عن ذلك فيما بعد ـ كان سبباً في اثارة رد فعل عنيف من طرف الحكومة، وكانت النتيجة أن قامت الفتنة في كل مكان وتعددت القلاقل وفسدت الحالة الاقتصادية بصفة عامة. فلا غرابة ان اصبحت تلك النقوش قليلة في عهد الامبراطور ديوكليسيان ، نظراً لارتباك الحالة في البلاد من الوجهة الاقتصادية والمعنوية

ومهما يكن من أمر فقد استوطن الرومان بلاد المغرب وصمموا على استعمارها وقدموا كل مساعدة للمعمرين من أبناء جلدتهم طالبين منهم أن ينتجوا كل ما من شأنه أن يسخر لتموين العاصمة فلم يمض زمن طويل حتى أصبحت افريقيا ـ على حد تعبير اللاتينيين أنفسهم ـ مطميراً لرومة (Romae Graniarum) تمدها بقدر وافر من المحصولات الزراعية على اختلافها كالحبوب وغيرها والفواكه والخمور (١)

(١) يذكر ذلك الكاتب اللاتيني بلين الاصغر (Pline le Jeune) .



اروقة رومانية بوليلي

والصوف واللوح والمرمر [1] والزياتين .

ونذكر بهذا الصدد أن رومة كانت تعتمد على افريقيا بنوع خاص فيما يرجع الى امدادها بالحبوب [2] والزياتين مما يدلك على أن البلاد كانت ولا تزال فلاحية قبل كل شيء

أما الحبوب فقد كان الأهالي من الفلاحين يجعلون منها في آخر كل موسم فلاحي ثلاثة أقسام: قسم يحتفظون به لتموين السكان ، وقسم يدفعونه لخزائن الحكومة المحلية كالخراج ،

---

(1) وكان الرومان يستخدمونه بنوعيه الابيض والاحمر في صنع التماثيل على اختلافها

(2) ان النقود التي كان الاهالي يتعاملون بها أيام تغلغل الاستعمار الروماني في افريقيا الشمالية كانت تحمل في أحد وجوهها سنبلة أو سنبلتين من القمح ، وفي ذلك دليل قاطع على ان البلاد كانت تنتج كمية هائلة من الحبوب .

وقسم ثالث يبعثون به الى ايطاليا على طريق ميناء أوستي (Ostie)

أما الزيوت فكانت رومة تستورد منها كمية عظيمة لضرورة الطبخ والانارة ، واذا احتجنا الى دليل على صلاحية أراضي المغرب لانتاج الزيتون ، فما علينا الا أن نسرح الطرف في نواحيه المكتسية حتى اليوم بأشجار الزيتون الكثيرة لنقتنع بصحة هذا الرأي ومن البراهين القاطعة على أن البلاد كانت غنية بزياتينها في أيام الاحتلال الروماني كثرة الأرحاء الزيتية التي عثر عليها في سائر أنحاء البلاد والخوابي الكثيرة التي كانت تستخدم لحفظ الزيتون والتي وجدت في كل مكان برومة وايطالية وبقية الامبراطورية الرومانية (1)

أضف الى ذلك أن افريقيا الشمالية كانت تمد رومة بالحيوانات كالخيل والبغال والوحوش الضارية التي كانت تحتاج

(1) علاوة على هذه البراهين الاركيلوجية يحسن بنا أن نسوق للقارىء الكريم في هذا المقام ما قاله ابن عبد الحكم في كتابه « فتوح افريقيا والاندلس » ، فقد جاء في الكتاب المذكور بالحرف « حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا ابن لهيعة ان عبد الله بن سعد هو الذي افتتح افريقية ، ونقل هو الذي افترع افريقية ، وأنه كان يوضع بين يديه الكوم من الورق فيقال للأفارقة من أين لكم هذا ؟ قال فجعل انسان منهم يدور كالذي يلتمس الشيء حتى وجد زيتونة ، فجاء بها اليه ، فقال من هذا نصيب الورق ، قال وكيف ؟ قال ان الروم ليس عندهم زيتون، فكانوا يأتوننا فيشترون منا الزيت ، فنأخذ هذا الورق منهم » (من صفحة 46 الى 48) .

اليها العاصمة لتنظيم أعيادها وحفلاتها الكبرى لكن ليس معنى هذا كله أن البلاد كانت خالية من كل صناعة ، بل المعروف اليوم أن في كثير من المدن الافريقية كان الأهالي يزاولون صنع الأقمشة الغليظة والأواني الطينية على اختلافها والمصابيح الزيتية ، وكانت صناعة المصابيح رائجة بنوع خاص في مدينة شرشال (القيصرية) ، وكانت التجارة نافقة مزدهرة تتناول المصنوعات الوطنية والمنتوجات الزراعية وكانت هذه المنتوجات تصدر ـ كما أسلفنا ـ الى مدينة رومة التي كان سكانها يستمدون على وجه التقريب من المغرب كل ما يحتاجونه من ضروريات حياتهم اليومية كالحبوب والزيوت التي كانت العاصمة الرومانية تستورد كمية هائلة منها في كل



الشارع الشمالي الشرقي بوليلي
(مكتب الآثار بالمغرب)

سنة   هذا ومن المعروف ان سكان العاصمة كانوا ينفقـون
معظم أوقاتهم في الحفلات والألعاب ، وقد كانوا مولعين بها
الى حد بعيد (ا) فكان من الطبيعي والحالة مـا ذكر ان
يعتمدوا في كل ما يحتاجون اليه على المغرب ، ومـن الطبيعي
أيضاً أن يروا أنفسهم مهددين بالمجاعـة والموت متى ما حاول
الأهالي قطع العلاقات التجارية مع أم الوطن والواقـع ان
الرومانيين كانوا يعيشون عالة على الامبراطورية الرومانية ،
يستوردون مـن خيراتها كل ما يشاؤون ثم يؤدون ثمن تلك
الواردات بمحصول الضرائب الكثيرة التي كانوا يستخلصونها
من الأهالي بلا هوادة ولا شفقة

على أن السكان في افريقيا الشمالية استفادوا من المعاملات
التجارية التي سبقت الاشارة اليها، كل بحسب درجته الاجتماعية
ومستواه ، سيما وقد تم للرومان ما كانوا يريدون اذ تمكنوا
من اقرار الأمن في كل ناحية وقمع احتلالها من طرفهم حتى
انتشر السلام الروماني (Pax Romana) في طول البـلاد
وعرضها

ومن ثم تعـددت العمارات وتضخمت الثروات الفرديـة
فارتفع مستوى المعيشة في الجملة ، الأمر الذي دفـع بالكاتب
الكاثوليكي ترتوليان (Tertulien) الى أن يقول لقـد
أصبحت الأرض تزرع اليـوم بصورة أحسن وأكثر فائدة من

(ا) من الاقوال السـائرة عندهم الجمـلة التالية أي شيء يطلب الشعب
من الحكومة ؟ الخبز والالعاب Panem et Circences !



قناطر مائية وضعها الرومان لجلب الماء لسكان مدينة القيصرية بالجزائر

ذي قبل ، لذلك فهي أغنى مما كانت عليـــه ، في كل مكان، ترى المنازل تنشأ بكثرة ويتعدد السكان ويتضاعف عدد القرى والدساكر،فأي دليل بربك أقوى من هذا على ازدياد المخلوقات. وتكاثرهم ؟ لقد ناءت بنا الأرض وكادت منتوجاتها أن لا تفي بضرورياتنا (١)

ان أقل ما يستنتج من كلمة ترتوليان السابقة تكاثر عـدد. سكان المغرب أيام كانت الامبراطورية الرومانية مزدهرة ويمكن تقدير هذا العدد بسبعة ملايـين نسمة كانوا يعيشون في افريقيا الشمالية اذ ذاك لكنهم لم يكونوا كلهم يعيشون عيشة واحدة ولا كانوا ينتمون لطبقـة اجتماعية واحدة ، فقد جعلت رومة من هؤلاء السكان ثلاث طبقات متفاوتة متباينة. من حيث عــدد أفرادها وطرق معيشتها ومجموع الحقـــوق، والواجبات التي كانت تتميز بها

1 ـ الطبقة العليا ، وتشتمل على الرومانيـــين أنفسهم (Les Romains) أو المتصفين بالجنسية الرومانية

2 ـ الطبقـــة الوسطى ، كانت تشتمل عـــلى اللاتينيين (Les Latins) ، وهم الذين كانوا يسكنون بايطاليا خارج ناحية معينة اسمها اللاسيوم (Latium)

3 ـ أما الطبقة السفلى والأخيرة فكانت تشتمل عـــلى بقية المواطنين ، وقـــد أطلق الرومان عليهم كلمة الأجانب

(١) راجع « جنصريق ملك الوندال » الاستاذ قوتيي (ص 119) .

(Pérégrins)

كذلك كانت تفعل رومة ، تجزىء وتفرق حتى تضمن لنفسها السيطرة على الجميع [1]

وكان أهل الطبقة الأولى يتمتعون بجميع الامتيازات والحقوق دون غيرهم ، وكان أصحاب الطبقتين الأخيرتين يسعون بطبيعة الحال بكل وسيلة ممكنة لينتقلوا من طبقة الى طبقة أعلى منها. وفعلاً فقد تمكن بعضهم بفضل مجهوداتهم الخاصة وأعمالهم المتواصلة من الارتقاء من رتبة أجنبي الى رتبة فارس وبعد ذلك من الحصول على العضوية في مجلس الشيوخ [2]

ومن خصائص السياسة الرومانية انها ميزت بين المدن والقرى كما ميزت بين الأشخاص والأفراد ، فقسمتها قسمين على الأقل رومانية ومنها ما أعفي من دفع الضرائب كلها أو بعضها ، ولها الحق جميعها في المشاركة في الانتخابات ، وبربرية وهي مختلفة الأنظمة لا تتمتع بشيء من الحقوق المخولة للمدن الرومانية. وكان لكل مدينة مجلس بلدي من خصائصه وضع ميزانية البلدية والسهر على مصالح المدينة وكان من عادة أعضاء المجلس أن لا يرشحوا أنفسهم للعضوية الا بعد ما يقدمون للشعب عدة حفلات لكي يحملوه على مؤازرتهم أثناء

(1) التفرقة من أجل السيادة على الجميع طبقاً للمثل اللاتيني القائل فرق تسد Divide ut impeses .

(2) « افريقيا الشمالية في التاريخ » (ص 83) .



رحى زيتية رومانية بتيبسة Madaure

الانتخابات وكان العضو المرشح لمجلس البلدية مسؤولاً أمام البلدية فيما يتعلق بجمع الضرائب ، حتى اذا تأخر الأهالي عن دفعها اضطر لادائها من عنده مكانهم ، لذلك كان يشترط في المرشح للمهمة الآنفة الذكر أن يكون غنياً قبل كل شيء

أما الاجتماعات العامة فكانت تعقد بساحة المدينة الكبرى المسماة عنـدهم بالفروم (Forum) اذ كان الشعب الروماني يتجمع فيها للاستماع الى القرارات الحكومية وكذلك المشاركة في الانتخابات

ومن خصائص السياسة الرومانية أيضاً أنهـا كانت تحمل

الأهالي على ملازمة المدن وتحبب اليهم الحياة الحضرية ، فكان من نتيجة هذه السياسة الغريبة أن تعددت المدن بعدما هاجر السكان من القرى والبوادي الى المدن يعمرونها

هذا وأوضح دليل على تفنن الرومان في سياسة الشعوب وقدرتهم على قيادة الجماعات أن أرقى الأمم الأوربية في هذا العصر نسجت على منوالهم واقتبست من أساليبهم السياسية والادارية

وظلت رومة مهيمنة على افريقيا الشمالية بأسرها والحالة هادئة مطمئنة الى أن ظهرت الديانة المسيحية ، وانتشرت أشعتها في أنحاء المغرب كله ، فساءت الحالة بصورة عامة حتى أصبحت تبعث على القنوط والانكسار ، والواقع أنه ما كادت الديانة الجديدة تنتشر في الغرب حتى تهافت عليها الأهالي وتمسكوا بتعاليمها لالشيء إلا لأنها كانت تأمر بالأخوة والمساواة وتحض على التشبث بمكارم الأخلاق والواقع أن حالة البربر كانت قد ساءت مع الرومان الى دزجة أن ضاقت بهم الأرض بما رحبت وتعذرت عليهم أسباب المعيشة نظراً لما لحقهم من الاضطهاد على يد أولئك المستعمرين وسوء معاملة وهذا الذي يعلل موقف البربر من الدين الجديد وتهافتهم عليه بحيث يمكن أن نقول اذا كان المواطنون الأصليون قد أقبلوا على الديانة المسيحية بهذه الدرجة من التلهف ضاربين بوثنية الرومان عرض الحائط ، فما ذلك الا لأنهم كانوا يأملون أملاً قوياً في التخلص من براثن الاستعمار الروماني بواسطة

هذه الديانة الجديدة

وأحس الرومان بمفعول هذه المبادىء الثورية في عقول الأهالي ، فراحوا يضطهدونهم ويعذبون كل من سولت له نفسه أن ينتحل المسيحية ديناً ، فساءت الحالة السياسية في البلاد ، ومما زاد في الطين بلة اضطراب الحالة الاقتصادية وهبوط مستوى المعيشة تبعاً لتعدد القلاقل واضطهاد الأهالي الآمنين . ولم يلبث الامبراطور قسطنطين أن يتفطن لخطورة الموقف ، فيوطد العزم على جعل حد لتلك الحالة المنكرة ، ويعتنق الدين المسيحي هو نفسه ، وتصبح بذلك للديانة المسيحية صبغة رسمية

غير أن الامبراطور لم يهتد الى موطن الداء من ذلك الجسد المريض ولم يعمل على التخفيف مما كان يعانيه الأهالي من آلام وأسقام ، فبقيت حالتهم المادية والاجتماعية كما كانت وظل الرومان يسخرونهم لمصالحهم الشخصية وبعد الصبر الجميل تطير حمية البربر ، فيعرضون عن الديانة المسيحية التي كانوا يرجون من ورائها قبل ذلك تحقيق مطالبهم السياسية ، ولم تلبث أن تنتشر الفتنة في طول البلاد وعرضها على يد الزعيم فيرموس Firmus — 371 ب. م. — الذي راح يجوب البلاد طولاً وعرضاً لاحياء ضمائر المواطنين ويتولى بنفسه تنظيم المظاهرات ضد رومة التي أرادت أن تبتلع شعباً بربرياً بأسره وتقضي على شخصيته وآماله

والواقع أن الرومان الغاضبين لم يتركوا وسيلة تؤديهم الى

الاستيلاء على العنصر البربري إلا سلكوها ، فأجبروا البرابر على الخدمة العسكرية وقدموا لمن أراد التجنس منهم بالجنسية الرومانية كل مساعدة ، مؤملين من وراء ذلك كله ابتـــلاع العنصر الأهلي ، ولم تقف الدولة الرومانية عند هذا الحد ، بل تعدته الى نشر الثقافة الرومانية بكل الوسائـــل ، ففرضت استعمال اللغة اللاتينية بصورة رسمية في المحاكم والمدارس القائمة اذ ذاك في المـــدن الكبرى كقرطاجنة وسرتا وشرشال ، وأهملت بطبيعة الحال لغة أهل البلاد القرطاجنية

على أن المؤرخين يخبروننا بأن الأهالي ظلوا — رغم ذلك كله— محتفظين بلغة قرطاجنة طيلة الاحتلال الروماني خصوصاً



ساحة « الكابيطول » بوليلي (المكتب المغربي للآثار)

في البوادي ، أي في معظم البلاد المغربية وهذا الذي حمل بعضهم على القول بأنه اذا كان البرابرة قد أقبلوا فيما بعد ، بتلهف عظيم على اللغة العربية وتعلموها بسهولة مدهشة فما ذلك إلا لأنهم كانوا — عند دخول العرب — يستعملون اللغة البونيكية بصورة عادية جيدة ومعلوم ان أوجه الشبه كثيرة بين اللغة القرطاجنية واللغة العربية

ولم تكن مقاومة المغاربة للمحتل الأجنبي إلا فيما يتعلق بلغة التخاطب ، بل المتتبع لأحوالهم يرى أن معظم الأهالي كانوا ـ اذ ذاك ـ معرضين عن الحضارة الرومانية نظراً للأساليب التي كان الرومان يستعملونها في نشرها ، معتصمين في بعض الأحيان بجبالهم ، محتفظين دائماً بالتقاليد الموروثة عن الأجداد

وهل معنى ذلك أن احتلال رومة لهذه الديار مدة من الزمان لا تقل عن خمسة قرون جعلها لاتؤثر بالمرة في الأهالي؟ كلا ! انما الذي نريد اثباته في هذا المقام هو أن المدنية الرومانية بصفة عامة لم تتعد المدن الشهيرة ولم تتأصل جذورها في التراب المغربي ، كما يذهب الى ذلك بعض المؤرخين ، وإلا فلم يا ترى اضمحلت سريعاً فكانت أثراً بعد عين ؟!

والحقيقة التي لا جدال فيها أن تأثير الحضارة الرومانية لم يتعد طائفة قليلة من أعيان البربر الذين بهرهم بريق تلك الحضارة ، فراحوا يكرعون من معينها ، وأقبلوا اقبالاً على درس اللغة اللاتينية ، على أن تلك الأوساط المثقفة هي

الأخرى لم تنس لغتها الوطنية طيلة أيام الاحتلال الروماني وانما كانت تفضل استعمال اللاتينية أو اليونانية - دون القرطاجنية - اعتقاداً منها بأفضليتها واقتداء بالمتغلبين وتشبهاً بهم ليس إلا ولا غرابة اذا وجد اذ ذاك في الطبقة المثقفة من الأهالي الخطيب المفوه ، والكاتب البارع ، والقسيس الصادق ، والفيلسوف المتبحر في العلوم ، نظراً لما للبرابر من مواهب عقلية لا تنكر

والذي يتتبع تلك الفترة من الزمان بالعناية والدرس النزيه يرى أن الآداب اللاتينية قد انحطت كثيراً في افريقيا الشمالية بتعدد القلاقل والاضطرابات الناجمة عن انتشار الديانة المسيحية رغم ما كانت لهذه الآداب من قوة ومتانة في السابق ، والدليل على ذلك أن جمهور الأدباء والكتاب حينما تصدوا لترجمة الانجيل ، وأرادوا أن يعبروا عما كان يختلج في صدورهم من أفكار وخواطر تتعلق بالديانة الجديدة اضطروا الى استخدام تراكيب عبرانية في كتابتهم واختلاق جمل وألفاظ من عنديتهم تارة أو استعمال كلمات قديمة أعطوها معاني جديدة تارة أخرى وكل ذلك بالطبع أحدث نوعاً من الاضطراب في اللغة أدى بها الى الضعف والانحلال

غير أن الحالة الأدبية ما لبثت أن تطورت بعد ظهور الديانة المسيحية بقرنين على وجه التقريب ، فتحسنت في أقل ما يمكن من الزمان بفضل كتّاب وأدباء وطنيين وغيرهم ، امتازت كتاباتهم بصبغة دينية وروح قوية كانوا يرومون من

وورائها الدفاع عن الديانة المسيحية

وها نحن نذكر لك ـ فيما بعد ـ على سبيل الاشارة فحسب ، بعض أولئك الأعلام الذين يحق للمغرب أن يعتز بهم ويباهي غيره من الأمم فهذا ترتوليان الكاتب الكاثوليكي الذائع الصيت ، ازداد بمدينة قرطاجنة ما بين سنة 150 و 160 م ، فبرهن على نجابة فائقة وهو يدرس علم البيان ، ثم تخصص في الحقوق ، فكان قسيساً ، وبعد ذلك رحل الى رومة حيث توفي سنة 222 م ولقد ألف ترتوليان (Tertulien) كتباً عدة ضد الزنادقة واليهود يريد بها مكافحة المذهب الوثني واظهار براعة الدين المسيحي: ذكاء وقاد وعقل واسع وكتابة قوية متينة ، ذلك هو الكاتب القسيس ترتوليان الذي سارت بذكره الركبان

ومن زعماء الفكر المغربي في العصر القديم القديس الفيلسوف اوغيستان (Saint. Augustin) وكانت أمه بربرية ، ولد اوغيستان عام 354 م وتوفي سنة 430 بمدينة عنابة (Hippone) وهو يدافع عنها دفاع الأبطال ، أيام كانت محاصرة من قبل الوندال [1] ، وقد اشتهر اوغيستان في بدء حياته بعيشة متهتكة ماجنة ، لكن ما لبث ان تاب الى الله وأصبح من الزهاد المتقشفين .

وكان القديس اوغيستان ثاقب الذهن ، واسع الفكر ،

---

(1) راجع الفصل السادس ، (ص 99)

غزير العلم ، ارتوى من مبادىء الديانة المسيحية ، فأصبح من أكبر القسيسين ورجالات الكنيسة الكاثوليكية . وقد كرس حياته الصالحة في مقاومة الزنادقة ومكافحة المذاهب الأخرى التي من شأنها أن تقف حجر عثرة في سبيل تقدم الديانة المسيحية ؛ وكان يستعمل سائر الوسائل لمحاربة المذهب الدونتاتي (Donatisme) الذي كان يرمي الكاثوليكيين بتسرب الضعف إلى عقيدتهم الدينية كما كان يحارب المذهب المانكي (Manichéisme) والمذهب الآري الذي سينتحله ، فيما بعد ، القائد جنصريق ، ملك الوندال

وقام من جراء ذلك خصام عنيف بين الكاثوليكيين وأنصار المذاهب الأخرى أذكى نار العداوة بين الفريقين وحمل كلا منهما على تحرير المؤلفات العديدة للدفاع عن مبادئهم ومعتقداتهم ؛ فنشأت من ثم حركة أدبية مباركة ؛ وخاض أوغيستان غمار المعركة بقلمه ، وحمل نفسه على تحرير كتب عديدة في الموضوع تمتاز بقوة العبارة ومتانة الاسلوب ، أشهرها اعترافاتي (Mes Confessions) ؛ وقد عرض فيها نبذة من حياته الغريبة متعرضاً للكلام على تلك الأزمة الدينية التي كانت سبباً في تطور اعتقاده بالصورة التي سبق ذكرها . وله أيضاً « مدينة الإله » (La Cité de Dieu) وهو كتاب يشتمل على 22 فصلاً أراد بها القديس أن يظهر فضل الآخرة على هذه الحياة الدنيا. وبكلمة واحدة نستطيع القول بأنه لم يوجد هناك – في الزمن القديم بافريقيا – مواطن



تمثال غلام بربري او روماني توج رأسه بالاكليل
(المكتب المغربي للآثار)

بلغ من الثقافة اللاتينية ما بلغه القديس أوغيستان ولا كانت له تلك المرتبة التي تبوأها هذا الكاتب العبقري العظيم !

وبما أن ازدهار الفنون الجميلة ليس إلا نتيجة من نتـــائج الحركة الفكرية ، ومظهراً من مظاهر الثقافة العامة يجوز لنا أن نقول ان الحياة الفنية في أيام الاحتلال الروماني بالمغرب كانت مزدهرة نشيطة وقـــد ظهر ذلك النشاط في صناعة الخزف ، وتشييد الهيا كل المزينة بالأعمدة الرخامية والتماثيـل

الجميلة ، ووضع القناطر المتعددة الأقواس الجميلة المنظر وبناء المراسح والحمامات المزينة بالفسيفساء ، وصنع التوابيت ومشاهد الأموات

ويتجلى ذلك الفن الموصوف بالعظمة والجمال خاصة في تلك التماثيل المتناسقة الأضلاع المنبثة في سائر أنحاء افريقيا من سوسة الى وليلي بالمغرب الأقصى ، سواء كانت من البرنزام والمرمر الجيد البراق ...

ولقد تطور الفن الروماني بعد ذلك تطوراً محسوساً ؛ فاستخدمه الرومان في بناء منازل للسكنى تتوفر فيها شروط الراحة ويجدر بنا أن نقول ما دمنا نتحدث عن كيفية تشييد المنازل أن التصميات والأساليب المعارية التي نعمل بها في بناء منازلنا الأهلية هي التي كان الرومانيون يعتمدونها في تشييد منازلهم في افريقيا الشمالية ؛ وهي على كل حال مناسبة لاقليم البلاد وهوائها الحار وكان الرومان يسعون في تجميل منازلهم بالأروقة والأعمدة الرخامية الرقيقة والفوارات والبساتين الغناء وبكل ما من شأنه أن يضمن لهم عيشة هنيئة مريئة ويؤمنهم من حرارة البلاد الطبيعية .

حقاً ان نظرة واحدة لتلك الأعمدة الرخامية ذات التيجان المزخرفة المورقة لأعظم دليل على مدنية الرومان ورسوخ قدمهم في الفن المعاري الذي اعتمدوه خاصة في هذه البلاد

لكن من المقرر ان الدولة إذا اتسعت ممالكها وأصبحت



ساحة دار رومانية مزينة بأعمدة رخامية
جميلة بوليلى
(مكتب الأبحاث بوليلى)

هذه الممالك والأطراف بعيدة عن المركز [1] فـــلا بد من أن يتسرب اليها الضعف والفساد « وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم »[2] سرعان ما يتصدع بسببها بنيان الدولة ؛ ثم لا يلبث أن يتضعضع جملة ، فيكون مصيره الفنـــاء والاضمحلال . كذلك وقـــع بروما عندما طرقتها الشيخوخة وقد جعلت

(1) مقدمة ابن خلدون ص (162) .
(2) نفس المصدر ص (199) .

الامبراطورية الرومانية تسترد حياتها وتشعر بشخصيتها كأنها تبرز شيئاً فشيئاً إلى عالم الوجود. وما هي إلا عشية وضحاها حتى اندرست تلك المدنية الهائلة فأصبحت أثراً بعد عين ... والذي يدعو إلى الاستغراب هو أن عقب نزول الجحافل الوندالية بالتراب المغربي – بعد احتلال روماني دام ما يقرب من ستة قرون – لم يبق أي أثر روحي ذي بال يدل على عظمة رومة وأيامها الزاهية اللهم إلا بعض الأطلال الباكية...

أليس في زوال هذه المدنية من المغرب بسرعة ما يعطي الدليل على أنها لم تؤثر في الأهالي تأثيراً قوياً كما يزعم بعض المؤرخين ؟!

أجل ! ان أمة لا تحسن التصرف في شؤونها ولا في شؤون أولئك المغلوبين على أمرهم من قبلها ثم « لا تزال تتلون بعوائد الترف والحضارة »(1) فتنغمس فيها إلى أبعد ما



أواني طينية بوليلي

(1) مقدمة ابن خلدون ص (169).

تستطيـــع ، لا ينفك أن يزول سلطانها وتضمحل آثارها ،
وذلك لا لشيء إلا لأن « الله عز وجل جعل للدول أعماراً
كالأشخاص إذا جـــاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون . »[1] « سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد
لسنة الله تبديلا[2] »

(1) مقدمة ابن خلدون ص (171) .
(2) من سورة الفتح .

1 ـــ الديانة المسيحية بالمغرب

كان الرومـان كغيرهم من الشعوب يعبدون الأوثان ، وهم بها يرمزون الى آلهة جمة ، وكان البربر يعبدون كذلك أوثاناً ورثوها عن قرطاجنة الأولى كبعل وتانيت ؛ ولمـــا استقر للرومان قدمهم بهذه البلاد أخذوا بعض أصنام البربر وسموها أسماء رومانية وكذلك أخذ البربر بعض أصنام رومة وسموها أسماء بونيكية وكان البربر في الغالب يعكفون على عبادة القوات الطبيعية كالغـــابات والأحراش والأنهر بينما كان الرومانيون يعبدون كل صنم أينما وجـــدوه سواء بالشرق أو بالغرب.

ظهرت بالشرق أنوار الديانة المسيحية في أول عهد القياصرة ، فاعتنقها جم غفير من الرومان وتسربت بواسطتهم الى المغرب وقدم مبشروها اليه ؛ فأعجب البربر بهذا الدين الآمر بالاخوة والمساواة ومكارم الاخلاق وتسارعوا الى الدخول في دين الله أفواجاً وأصبحت له بيع صغيرة منبثة في كافـــة أنحاء البلاد المغربية .

وكيف يمكن أن يعامل الولاة والكبراء تلك الديانة وهم أصحاب السلطة والجبروت وبيدهم الحل والعقد والناس أمامهم عبيد مسخرون ، والقـوي يملك كل شيء والضعيف لا يملك شيئاً ، وتلك الديانة تريد أن تسوي بينهم وتجعلهم أمام ربهم اخوانـــاً لا سيد ولا عبد ؟ انزعجوا من ذلك الأمر وأخذوا يبثون العراقيـــل في الديانة الجديدة ؛ فما أغنت عنهم تلك العراقيل شيئاً واستفحل أمرهـا ؛ فأخذوا ينكلون بالمعتنقين تنكيلاً شديداً ، ولم يقفوا أمام أي فظاعة أو قوة فكانوا يسجنون المسيحيين سواء بايطاليا أو بالمغرب ؛ ثم يجمعون الناس في يوم مشهور بإحـــدى الملاعب الكبيرة ، ويخرجون أولئك التعساء رجالاً ونساء في وسط الملعب ويطلقون عليهم الأسود الكاسرة الجائعة ؛ فتمزقهم إرباً إرباً وتأكلهم عـلى مرأى ومسمع من الجمـــوع المتفرجة ؛ كان أولئك الشهداء ، شهداء وحشية الانسان ، يموتون بكل جلد وثبات

وما كانت تلك المقـــاومة العظيمة لتوقف سير الديانة الجديدة أو ترجعها على أعقابها ، بـل استمرت السوقة معتنقة لها ، وازداد انتشارها ، وان هي إلا مدة وجيزة وإذا ببعض الحكام الرومانيين يعتنقونها ، وإذا بالراهب القديس سيبريان (Saint - Cyprien) الروماني يجمع مؤتمراً دينياً بقرطاجنة يحضره 10 من رؤساء الدين المسيحي ، واستمر توارد النـاس أفواجاً واستمر الاضطهاد حتى تولى الامبراطورية ديو كليسيان ، فعامل المتدينين معاملة وحشية لم يروِ التاريخ أفظع منها حتى

أطلق المسيحيون على أيام حكمه اسم « عصر الشهـداء » ثم حدث بايطاليا خلال القرن الرابع حادث جلل ألا وهو قيام الامبراطور ماكسونس (Maxence) عـلى الامبراطور قسطنطين ، فاشتعلت بين الفريقين نيران حرب هـائلة

وأخـيراً استتب لقسطنطين الأمر عـام 312 وبادر عندئـذ باعلان المسيحية ديانة رسمية للدولة إذ كان المسيحيون أعوانه وأنصاره ، ثم نقـل كرسي مملكته الى بزنطة ودعاهـا القسطنطينية نسبة اليه ؛ ومـا كادت المسيحية تعلن ديانة رسمية حتى فر كثير من معتنقيها البربر ، وهم انما اعتنقوهـا فراراً من سلطان الرومـان وليتخذوها وسيلة لنزع السلطة الرومانية ، فلما أصبح الرومانيون أنفسهم يعتنقونهـا طفق البربر يفتشون على وسيلة أخرى ، ووجدوا ان هـذه الوسيلة هي ايجاد خلاف في الدين. فعندما مات أسقف المغرب المدعى مانسوريوس وقـع الخلاف في تسمية خليفته وترشح لذلك الراهب ساسليان ، لكن أنصار الفتنة أبوا الموافقة على هـذه التسمية وكان زعيم المعـارضين راهب قريـة بربرية يدعى دونات (Donat)

وتألف عندئذ جند من أشد الدوناتيين تعصباً وأخـذوا يجوبون أطراف البلاد بدعوى ضم جميع المسيحيين اليهم ، وكان أغلب هؤلاء الدوناتيين من العبيد الآبقـين وممن لا يملكون في هذه الدنيا غير أجسامهم ، فاتخذوا لأنفسهم مذهباً اجتماعيـاً هو خليط من الشيوعيـة والفوضوية ويقولون انهم يريدون

ان يقروا مبدا المساواة التامة في الرزق بين الناس ، وأنهم لا يعترفون بأية سلطة (١) ، وطفقوا كذلك يتجولون وانقلبوا عصابة نهب وسلب ترتكب الفظائع وتقوم بالذبائح ، ولم يبق لهم من الصبغة الدينية أي شيء ، فتعقبتهم الجنود الرومانية وقطعت في آخر القرن الرابع دابرهم ، لكن الدوناتيين الحقيقيين وأغلبهم من أبناء البربر ظلوا محافظين على قوتهم وصلابتهم يترقبون سنوح فرصة للانقضاض على أعدائهم ، وكانت حركتهم سياسية ترمي الى التحرير ، متقمصة في ثوب حركة دينية

وأعظم أسباب هذا الهيجان هو النظام الاستعماري الروماني الذي ملك الأرض بيد ثلة منتفعة وحرم منها جماعة الناس .

« قرطاجنة في أربعة عصور »
(ص. 114 - 117)

---

(١) وكذلك سيخرج البربر عن طاعة الخلفاء بعد الفتح الاسلامي لشمال افريقيا ، فيعتنقون مذهب الخوارج الذي هو قريب من مذهب الدوناتيين في المبدأ

2 ـــ دمعة على صديق

(كان للقديس اوغستان صديق حميم انتزعه الموت من يده ؛ فلم يطق القديس عنه صبراً ؛ فكتب هذه الكلمة يصف فيها حالته البائسة على أثر ذلك المصاب الاليم)

كنت إذ ذاك بائساً شقياً أبكي صديقي بكاء مراً دون ان أجد عنه تسلية اللهم الا مرارة تلك الدموع. وأعتقد انه بقدر ما كنت أحنو عليه وأبالغ في محبته بقدر ما صرت بعد وفاته ، أمقت الموت وأخشاه ـ وهو الذي انتزعه مني نتزاعاً ـ وأنظر اليه كأنه عدو قاس ، لا يلبث ان يفتك بجميع الناس حيث انه لعب بحياة عزيز عليَّ

وكنت أتعجب من كون الناس لا يزالون يتمتعون بالحياة في حين لم يبق ذلك الذي كنت أحبه وكنت أعتقد ان الموت لن يسطو عليه أبد الدهر وبما انني كنت انظر لي وله كما لو كنا ذاتاً واحدة فقد صرت أعجب من بقائي على قيد الحياة بعد وفاة صديقي أجل ، لقد صدق في قوله من اذا

تصدى قديماً للتحدث عن صديق له وصفه بنصفه الآخر ، لقد كنت أشعر حقـاً أن روحي وروحه شيء واحد خلق ليبث الحياة في جسمين مختلفين .

وهكذا سئمت الحياة اذ كرهت ان أعيش نصف الحياة ، وربما لهذا السبب كنت أخشى الموت على نفسي مخافـة ان يزول بالمرة ذلـك الذي أعرته شديد محبتي وخالص مودتي .

معربة عن « اعترافاتي » للقديس اوغستان

بقلم المؤلف (ص – 112 - 113)

الفصل السادس

افريقيا الرومانية تحت سيطرة الوندال

(429 – 534) م.

من هم الوندال ـ الجحافل الوندالية بالمغرب ـ معاهدة جنصريق مـــع امبراطور الشرق ـ نقض المعاهدة السابقة ـ من قرطاجنة الى رومة وتدخل امبراطور الشرق ـ خلفاء جنصريق ـ تدخل الرومان في شؤون المغرب ـ النظام الاداري في أيـــام الوندال ـ الحالة الأدبية في أيامهم ـ نتيجة الاحتلال الونـــدالي .

الوندال هم قوم من الجرمان كانوا يعيشون في أوربا ما بين نهري الأودير والفيستول[1] L'Oder et la Vistule . وقد

---

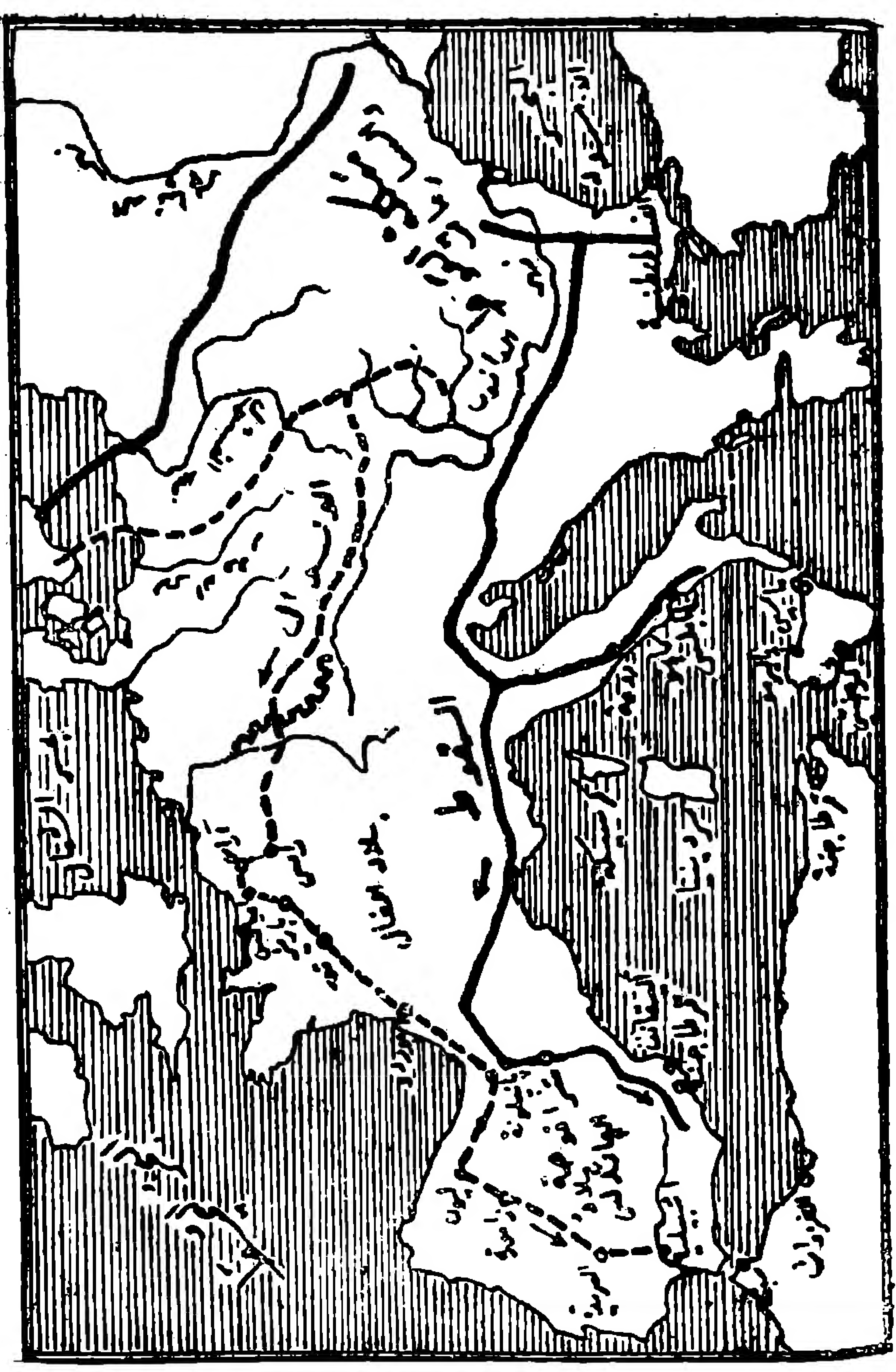
(1) أي في ناحيتي « بوميرانيا » و « بوسنانيا البولندية » الواقعتـــين في الجهة الشرقية من ألمانيا

أجمع المؤرخون على أن الوندال كانوا من الهمجية والوحشية بمكان [1] ، بحيث كانت الامبراطورية الرومانية — في ابان عزها وسؤددها — لا تسمح لهم بالاختلاط بأفرادها فلما جعل الضعف يتسرب الى أعضاء هذه الامبراطورية العريضة ، بعد ما مال أصحابها الى الرفاهية والملذات ، استعان الرومان بجحافل الوندال على حفظ الأمن في بلادهم واعتمدوا عليهم في الدفاع عن كيانهم ، ومعلوم أن الأمم المتوحشة أقرب الى التغلب على سواها نظراً لقوة العصبية فيها غير أن هذه الجنود المستأجرة لم تلبث أن استحوذت على مقاليد الأمور كلها ، وذلك ابتداء من القرن الخامس الميلادي ، ثم جعلت قوتها تزداد بقدر ما كانت شوكة الرومان تضعف ، وظلهم يتقلص ، والسبب في ذلك أن الجيل « كلما نزلوا الأرياف وتفننوا في النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم » [2]

وقد انتشر الوندال بعد ذلك في طول الامبراطورية وعرضها ، فاستولوا على بلاد الغال (La Gaule) وعبروا جبال البرانس ، فاندمجت اسبانيا تحت نفوذهم وعرفت منذ ذلك الحين ببلاد « الفاندلس » ، فلما فتحها العرب سموها

(1) ويكفينا أن الأوربيين متى أرادوا أن يعبروا عن الوحشية بمعناها الواسع الشامل استعملوا لفظة « فاندليسم » Vandalisme وهي مأخوذة من كلمة « وندال » بالذات .

(2) مقدمة ابن خلدون (ص 138) .



ـــــــ الخط المتواصل بين الطريق التي مر بها القوط قبل ان يتخذوا اسبانيا موطنا لهم
ـ ـ ـ ـ الخط المتقطع يشير الى الطريق الذى ملكه الوندال في غزوهم للبلاد الاوربية
قبل استقرارهم موقتا بالاندلس . «عن جنصريق ملك الوندال ص 72 ـ 73»

ببلاد « الاندلس » .

والواقع أنه منذ أن وطئت أقدامهم اسبانيا – حيث خربوا كثيراً من الآثار الرومانية – والوندال ينظرون بعين الطمع والاشتياق الى المدن الواقعة على شاطىء بحر الروم نظراً لأن الحالة الاقتصادية كانت بالمغرب أحسن بكثير مما كانت عليه في اسبانيا ، ولذا أصبحوا يتحينون فرصة لائقة تمكنهم من اجتياز البحر والاستيلاء على الأراضي المغربية وجاءت هذه الفرصة على يد الكونت بونيفاص[1] (le Comte Boniface) الوالي على افريقيا من قبل رومة وكان بونيفاص ، كما هو معروف ، في نزاع مع الملكة بلاسيديا ، فأعلن الحرب على الجنود الرومانية المرابطة بالمغرب انتقاماً لنفسه ، ولم يكتف بقطع العلاقات مع أم الوطن بل كتب الى جنصريق – قائد الوندال – يعرض عليه القدوم الى المغرب[2].

فيهيىء جنصريق جنوده العديدة ، ويجتاز البحر في ثمانين الف شخص من بين رجال ونساء وأطفال وذلك سنة 429م. والحقيقة أن جنصريق لم يكن ينتظر الا هذه الدعوة للنزول،

---

(1) كانت امرأته وندالية .

(2) يحسن بنا أن نذكر بهذه المناسبة كيف أن « الكونت جوليان » (Le Comte Julien) الوالي على مدينة سبتة من قبل البزنطيين سيسعى هو الآخر سنة 711 م. في اسقاط ملك اسبانيا « لذريق » (Rodrigue) الذي كان سبباً في النيل من شرف ابنته، فيزين لموسى بن نصير غزو الاندلس ويحمله على اقتحام الجزيرة انتقاماً من ملكها لذريق .

بل كان يستعد لهذه العملية منذ زمن بعيـــد وذلك لسببين اثنين ، أولاً لأن جنصريق كان – كما قدمنـــا – ينظر الى افريقيا وسهولها الخصبة بعـــين الشره والغبطة ، ثانياً لأن القوط ، سكان اسبانيا الأصليين ، كانوا من جهتهم يعملون على اخراج الوندال من بلادهم ، وقـد ضاقوا ذرعاً بهؤلاء الغزاة المتوحشين

ومما لا شك فيه أن دعوة بونيفاص شجعت جنصريق على النزول كثيراً. وكيفما كان الأمر فقد يعتبر هذا الجواز مغامرة لا نظير لها في التاريخ القديم ، باستثناء الرحلة الشهيرة الـــتي قام بها حانون القرطاجني عبر البحر المتوسط والبحر المحيط ، ذلك أن جنصريق عبر من اسبانيا الى طنجة ثم توجه حينـاً الى الساحل الجزائري على طريق البحر ونزل بمدينة الغزوات (Ad Fratres)[1]

ولم يسلك جنصريق – خلافاً لما يعتقد بعض المؤرخين – الطريق المعروف الواقع بين طنجة وتلمسان ، وذلك لخطورة المسلك وصعوبة الجبال الموجودة بين طنجة وناحية بني يزناسن والدليل على أن جنصريق اتخذ الطريق البحري للعبـور الى المغرب هو انه كاد أن يأخذ الرومان على حين غفلة ، ولو كان قد اتجه نحو ممر تازة مثلاً – على تقدير انه لم يكن يجهل وجود هذا الممر – لسمع به الرومان ولاستعدوا لمقاومتـه ، الا أن

---

(2) بالفرنسية « Nemours » .

يكون الضعف والانحلال قد بلغا منهم في ذلك الزمان مبلغاً عظيماً .

وكيفما كان الأمر فبمجرد ما وطئت أقدام الوندال أرض موريطانيا الطنجية ، أقبل البرابرة عليهم وأعانوهم على الرومان ولا غرابة في ذلك فقد كانت تجمعهم نعرة دينية واحدة هي عداوتهم للمسيحية [1] ، فضلاً عن الكراهة الطبيعية التي كان يكنها كل من الفريقين لأولئك الرومان المغتصبين

لكن الوندال ما لبثوا أن قاموا بأعمال وحشية ضد الأهالي ، فذبحوا الشيوخ وقتلوا الأطفال وانتهكوا الحرمات ، ولم تنته أعمالهم الاجرامية عند هذا الحد ، بل مدوا يدهم الأثيمة « الى النساء الحاملات يبقرون بطونهن ويستخرجون منها الأجنة يحطمون رؤوسها الصغيرة على الأرض ويرمون لحمها البشري الى الكلاب » [2]

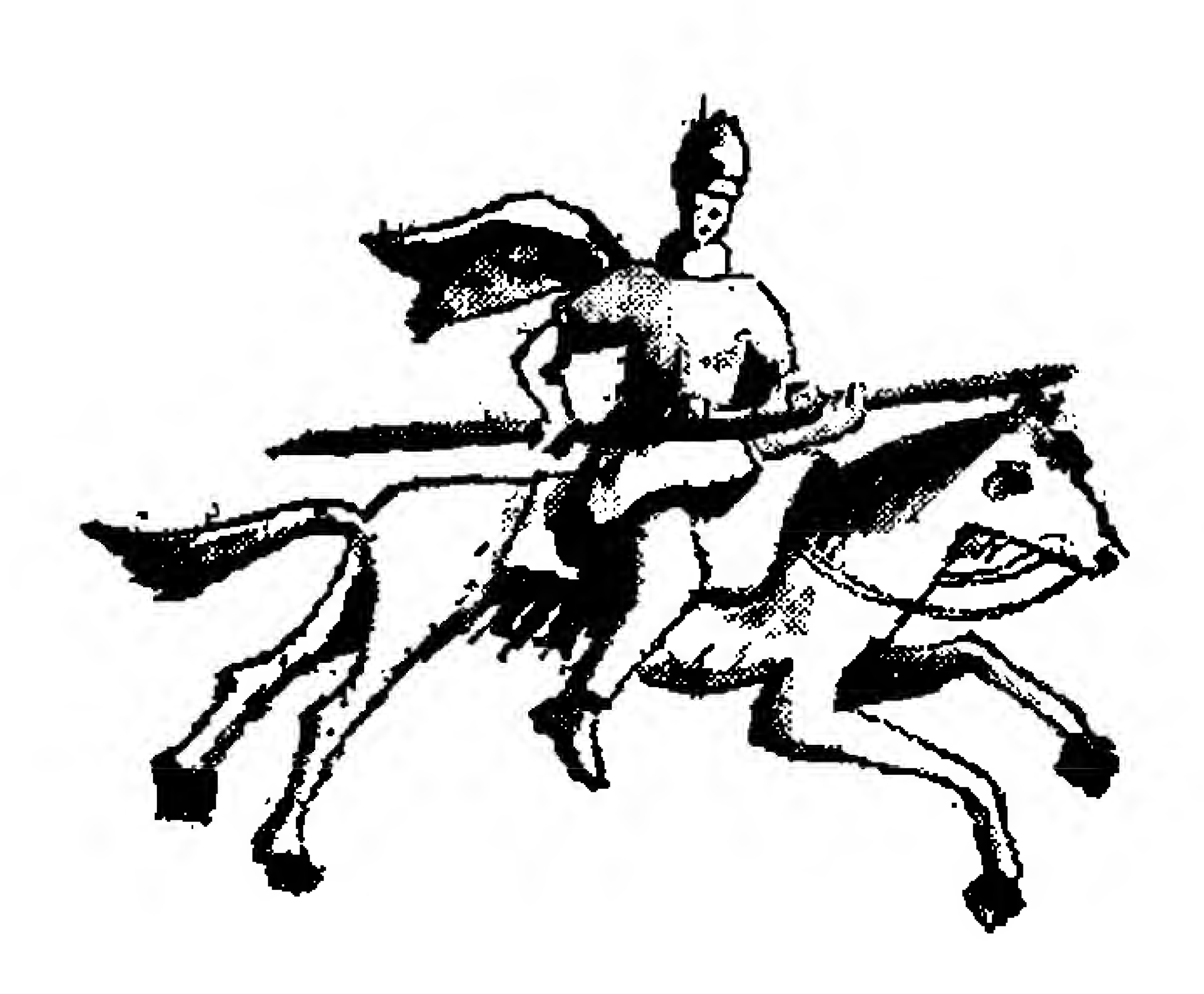
وعبث الوندال بكل شيء ، فلم يتركوا من ورائهم الا البؤس والخراب [3]

---

(1) ومن المعلوم أن الوندال كانوا يدينون بالديانة الآرية التي وضعها الرهيب « أوريوس » (Arius) ، الا أن هذا الاخير لم يكن يقول بالتثليث الذي هو عقيدة أساسية في الديانة المسيحية أما البربر فقد عرفنا أنهم تولوا عن الديانة المسيحية لما لم تتحقق آمالهم في الاستقلال .

(2) عن قرطاجنة في أربعة عصور (ص 125)

(3) نعتقد اعتقاداً جازماً أن هؤلاء المتوحشين هم الذين أتلفوا معظم الآثار الرائعة التي خلفها الرومان في بلاد المغرب . كما أحرقوا كثيراً من الغابات في الجبال والسهول .



فارس وندالي

ويمعن النظر بونيفاص في تلك الأعمال الوحشية الاجرامية فيأخذه الندم ـ بعد فوات الزمان بالطبع ـ على ما صدر منه مع الوندال ، ويريد أن يتدارك الأمر ، فيجهز جيشاً ، بعد تسلمه الامداد من امبراطور الشرق ، ويحمل على حلفائه بالأمس ، الا أنه ينهزم أمام مقاومة الوندال الشديدة ، فيلتجيء الى مدينة ايبون « عنابة Hippone » حيث يتولى الدفاع عنها الكاتب العبقري القديس أوغستان ، ثم يموت القديس سنة 430 م. فتسقط المدينة في قبضة العدو ولم يسع بعد ذلك بونيفاص الا أن يلتحق آخر الأمر بمدينة رومة ـ على أثر هذا الفشل المريع [1]

وفي أثناء ذلك كانت رومة ـ عاصمة الأمبراطورية الغربية قد بلغت من الكبر عتياً بحيث أمست تنظر الى حوادث

(1) كان الوالي بونيفاص أثناء ذلك قد نال عفو الاميرة « بلاسيديا ».

افريقيا المحزنة ولا تستطيع الدفاع عن حوزتها

أما امبراطورية الشرق فقد كانت لا تزال قوية فتية [1] فرأت من المعقول ان تدرأ عنها خطر جنصريق قبل أن يستفحل أمره ، وهكذا بعثت الامداد للكونت بونيفاص تعزيزاً لجانبه ، غير أن تلك المساعدة منيت كلها بالفشل والخسران كما تقدم وبما أن جنصريق كان يعلم علم اليقين أن نجاحه مرهون بعدم تدخل امبراطور الشرق في القضية المغربية فقد بادر الى فتح باب المخابرة معه ، فانتهت بعقد ميثاق تنحصر مادته في النقطتين الأساسيتين التاليتين

أولاً ـ يلتزم جنصريق بعدم مهاجمة منطقة « أفريكا » .

ثانياً ـ يعترف بوجوب دفع جزية سنوية لصاحب القسطنطينية. ورجاء أن يقنع الامبراطور بصدق نيته وحسن طويته بعث بولده هونيريك (Hunéric) كرهينة لدى الامبراطور

لكن جنصريق كان يضمر لصاحبه السوء ، ولم يرض بشروط المعاهدة السابقة رغم قساوتها الا ليتمكن من ضبط جنوده وتدريبها استعداداً لذلك اليوم الذي سيعلن فيه نواياه الحقيقية .

والواقع أنه منذ أن وقع على تلك المعاهدة وجنصريق

---

(1) وكانت عاصمتها القسطنطينية نسبة الى الامبراطور « قسطنطين » (Constantin) .

يستعد حتى اذا ما اطمأن اليه الامبراطور ورد اليـه ولده ، أطلق العنان لجنوده ، فانقضت على منطقـة « افريكا » ، ودخلت قرطاجنة الرومانية ـ قرطاجنة ذات التاريخ الحافل المجيد ـ فنهبتها نهباً وبعد ما طلب جنصريق مـن السكان أن يسلموا اليه كل ما لديهم من نفائس وحلل ونقود ذهبيـة استقر بقرطاجنة واتخذها قاعدة له (439 م) .

ولم يلبث الوندال عقب استقرارهم بمدينـة قرطاجنة أن دب الطمع في نفوسهم ، فـأخذوا يفكرون في توسيع دائرة نفوذهم وأنشأوا اسطولاً هائلاً جعل يمخر عباب البحر الأبيض المتوسط. فاحتلوا جزر الباليار وسردينيا وصقلية وكرسيكا . وفي بعض الأيام تسلم القـائد الوندالي خطـاباً من زوجة الامبراطور الصريع فالينتينيان الثالث (Valentinien III) تدعوه للقـدوم الى رومة وتطمعه فيما تحتوي عليه خزائن العاصمة من ذخائر ونفائس (١) ؛ وكانت العاصمة إذ ذاك في حالة يرثي لها من جراء النزاع القائم بين أفراد العائلة المالكة، ولا من يغيثها ولا من يدرأ عنها خطر البربر او الوندال !
فيركب جنصريق بمجرد وصول الكتاب في اسطول يضم

---

(١) وقد قتل فالينتينيان هذا السيناتور (Sénateur) بيترون ماكسيم رجاء ان يستحوذ على الملك ؛ وقـد رغب بعد ذلك في التزوج من امرأة القتيل لكن زوج الامبراطور الهالك لم تعد تفكر بعد تلك الفاجعة الا في الوسيلة التي تمكنها من الانتقـام وأخذ الثأر من بيترون على عمله الاجرامي ووقاحته .

عدداً كبيراً من القطع البحرية ميممنا التراب الايطالي؛ ويدخل العاصمة على رأس جيوشه العديدة ؛ فينهب ويدمر ولا يترك بقعة هناك إلا أتلفها وجعل أعلاها أسفلها ؛ « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلهـــا أذلة وكذلك يفعلون » (1)

ومن الحزن انه لم يوجد وقتئذ من بين أهل العاصمة بطل تأخذه الأنفة ، فيضحي بنفسه في سبيل حرية الوطن كما فعل القرطاجنيون من قبل ، وقد قاموا قومة رجل واحد ، على الحرب البونيكية الثالثة ، وضحوا بأنفسهم جميعاً في سبيل المصلحة القومية ! لكن الرومان الصغار فضلوا الحيــــاة على الموت وآثروا الذلة والمسكنة على الشرف والعز !

وتم لجنصريق ما كان يريد من نهب وسبي فقفل راجعاً الى المغرب، يحمل معه الامبراطورة التي استغاثت به وابنتيها: أودوكسي (Eudoxie) وبلاسيديا (Placidia) (2) وكذلك سبعين ألف أسير من بينهم عدد كبير من أعيـــان المدينة وشرفائها . وكان الامبراطور الشرقي ينظر الى تلك الحوادث كلهـــا باهتمام زائد وعين لا تنام خوفاً من أن ينتقل وباء

---

(1) من سورة سبأ .

(2) وقـــد تزوجت اودوكسي بهونيريك نجل جنصريق ، اما الاميرة بلاسيديا ـ وكانت على جـــانب كبير من الجمال ـ فقد كانت من حظ حاكم الامبراطورية الرومانية الشرقية .

الوندال المتوحشين الى المشرق كما انتشر شرهم في المغرب . ولما شاهد ما حل بالامبراطورية الغربية من للضعف وما أصيبت به من الذل والهوان صمم على الوقوف في وجه جنصريق ؛ فجهز اسطولاً ضخماً يحتوي على 600 قطعة بحرية تحت رئاسة الاميرال بازيليكوس (Basilicus) ؛ ثم جمع جيشاً عرمرماً أسند قيادته الى الجنرال هيراكليوس (Héraclius) غير أنِ المعارك التي دارت رحاها بين الروم والوندال سواء في البحرِ الأبيض المتوسط أم في طرابلس الغرب أسفرت جميعهـــا عن انهزام روماني شنيع وانسحاب الروم من بلاد المغرب بصورة نهائية. أما الامبراطور فقد اكتفى ـ والحالة ما ذكر ـ بعقد اتفاقية مع جنصريق اعترف فيها بسيادته المطلقة على سائر بـــلاد المغرب

تم لجنصريق ما نوى ، وأنشأ مملكة واسعة الأطراف ، لكن خلفاءه لم يحسنوا التصرف فيهـــا ولا الدفاع عن تلك المملكة العريضـــة التي لم تبق إلا مدة يسيرة حتي تصدعت أركانها على أثر وفاة زعيمها الأكبر ويظهر ان السبب في ذلك يرجع الى جو البلاد ، وهو جو متضاعف الحرارة راح يعمل عمله المعروف في مـــلوك الوندال المتأخرين بعد طول اقامتهم في هذه البلاد ؛ فكان ان مالوا الى حياة الرفاهية ؛ فأقاموا في المدن وضربوا مع الرومانِ المتأخرين بسهم في نعيمهم

وخصبهم كما وقع للرومان أنفسهم مع اليونان من قبل [1] ؛ وكان ايضاً ان أضاعوا شيئاً فشيئاً تلك العصبية التي كانت السبب الأعظم في قيام دولة الوندال وغيرهـــا من الدول والممالك [2]

ومعلوم ان الدولة اذا فقد أهلها تلك العصبية التي يتحدث عنها الفيلسوف ابن خلدون كان مصيرهـــا ومصيرهم الموت والاضمحلال . وسبب ذلك « أنهم يتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلقاً لهم فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيـــال بعدهم يتعاقبها الى ان تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض » [3] وفعلاً لم تزد أمور الوندال الا ارتباكاً بعد وفاة جنصريق ؛ أمـــا البربر فكانوا ينظرون في شيء من الارتياح والاطمئنان الى مـــا أصيب به الوندال من ضعف وانحلال في الأخلاق لأنهم كانوا يعلقون اكبر الآمال على تلك الحالة السيئة عساها تبلغهم غرضهم المنشود ، فتخلصهم من سيطرة الوندال المتوحشين .

---

(1) نعم ما فتح الرومان القساة بلاد اليونان واقاموا بها مدة حتى ظهر فيهم مفعول هوائها . فكأن البلاد انتقمت لابنائها من اولئك الغزاة بمجرد خضوعها لهم ؛ وهذا مضمن المثل اللاتيني السائر (Graecia capta ferum victorem cepit) .

(2) والقبيل اذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت اهل النعيم الخصب في نعمتهم وخصبهم (مقدمة ابن خلدون ص140) .

(3) مقدمة ابن خلدون (ص 240)

بقي علينا الآن ان نقول كلمة عن أهم الملوك الذين خلفوا القائد جنصريق في تلك الفترة القصيرة الشاقة وعن الأعمال التي أنجزوها في حياتهم ان كانت هنـــاك أعمال ومشاريـع قاموا حقاً بانجازها وتحقيقها ؛ ونبدأ بهونيريك (Hunéric) ذلك الأمير الذي مكث مـــدة بالقسطنطينية رهيناً عند صاحبها؛ وهو المتزوج ايضاً بالأميرة أودوكسي أخت بلاسيديا زوج امبراطور الشرق ؛ وقد امتاز هذا الملك بضعف البصيرة وقلة اعتباره للحوادث فاعتمد على المصــاهرة السابقة بينه وبين الامبراطور ، فظن فيه كل خير ولم يتفطن الى ضرورة اعداد جيش يدرأ به الأخطار عن بلاده متى ما دعته الحاجة الى ذلك .

وهذا النقص الفاحش فيما يرجع للتدبير العسكري خاصة يعتبره المؤرخون بمثابة سمة اتسمت بها بلادنا في الزمان القديم، إذ هو الذي جعل المغرب على مر العصور والأجيال كما سيجعله دائماً عرضة للقلاقل في الداخل ولقمة سائغة لأول فاتح يوجه اليه ضرباته

ولعل هذا الذي حمــل الاستاذ قوتيي (Gautier) على القول بأن افريقيا الشمالية لم تحظ ساعة واحدة بالحكم الذاتي في تاريخها الحافل وان انسحاب الدولة الحــاكمة لم يكن في القديم الا على يد دولة أجنبية أخرى مغتصبة كأختها ؛ ونحن وان كنا لا نقر هذا القول بتمامه نظراً لمـــا فيه من الغلو والمبالغة لا يسعنا إلا ان نعترف بأن الكلمة السابقة تشتمل

على نصيب من الحقيقة لا سبيل الى انكاره ؛ وسنتبسط ، بعد ، بحول الله في ذكر الأسباب التي حملت الاستاذ قوتيي على الحكم على بلاد المغرب بمثل هذه القساوة

أما وقد جرنا الحديث الى الكلام على حيوية هذا الشعب، فلا ينبغي أن تحملنا كلمة الأستاذ قوتيي على الشك فيما اذا كانت للمغاربة شخصية بارزة بين الشعوب ، إذ في مراحل التاريخ المغربي من شتى الآثار والعبر ما يدفع عنه تلك التهمة بل في ذلك ما يعطي الدليل القاطع على حيوية شعب المغرب النبيل

نعم عرف هونيريك بضعف البصيرة وسوء التدبير ؛ والواقع انه ما كاد ان يجلس على كرسي الحكم حتى انتشرت المجاعة في البلاد وشاعت الأمراض على اختلافها نظراً لقلة اهتمامه بشؤون الرعية ، كما عرف ايضاً بشدة تعصبه على الكاثوليكيين ؛ فلا غرو اذا انتهز البربر هذه الفرصة المواتية وراحوا ينظمون الثورات ويثيرون المشاكل المتعددة في وجه الحاكمين الونداليين؛ فهذ الزعيم البربري جالبيون (Galbion) ينظم ثورة هائلة ضد الوندال ، تقوم على أثرها معارك حامية الوطيس بين البربر والوندال في غرب طرابلس ، وينتصر فيها الزعيم الآنف الذكر

وأما الملك الثاني الذي يستلفت نظرنا من بين خلفاء جنصريق العديدين فهو هيلديريك (Héldéric) ولد هونيريك؛ وقد حملته أمه عند أختها الى القسطنطينية ، فترعرع هناك

وبقي في بلاط الامبراطور الجديد جوستينيان (Justinien) وكان لهيلدريك بعد تبوئه عرش المملكة المغربية عدة أعداء ؛ فلذلك رأى ان يعترف بحق السيادة لامبراطور الشرق تعزيزاً لمكانته ؛ غير ان الوندال لم يعترفوا بهـــذا الخضوع – وفي طليعتهم الأعداء – وعــابوا عليه عدم الثقة بنفسه وانهزامه المتواصل أمام جيوش البربر، بحيث لما قام جاليمار (Gelimer) – وهو أحد أفراد العـــائله المالكة – ونال بعض الفوز في مقاتلة الجيوش البربرية الثائرة عززوا جانبه ، فاستعان بهم جاليمار على هيلدريك وتبوأ كرسي المملكة مكانه .

فلما سمع جوستينيان بما أصاب صديقه الحميم ، غضب على جاليمار وكتب اليه يسأله ان يسمح لهيلدريك بالخروج صحبة عائلته الى القسطنطينية، وكان في كتابه كأنه يتوعده ويهدده.

فلم يرض بذلك ملك الوندال وكتب اليه يقول « إن الملك الذي يعمل بحكمة هو الذي يهتم بتدبير أمور دولته ولا يحول نظره الى الخارج يريدالتدخل في شؤون الدول الأخرى». ثم قال « هذا وان انت نقضت العهود المبرمة بيننا فاعلم انني سأقابل القوة بالمثل [1] ! »

فرأى يوستينيانوس ان في الجواب السابق ما يحط من قدره ويمس بكرامته ، ووجد في وقاحة الكتاب المذكور خـير فرصة لاعـلان الحرب على جاليمار ، ومن ثم شرع يجهز حملة

---

(1) عن « موجز تاريخ الجزائر » لصاحبه كات ج. 1 (ص 120)

هائلة على الوندال تحت قيادة الجنرال بالبزار (Bélisaire) المشهور الذي كان وبالاً على الونـــدال وسبباً في اضمحلال سلطانهم من بلاد المغرب كما سنقص عليك ذلك في الصفحات التالية بحول الله

أمـــا وقد بلغك الآن كيف تسرب الوندال الى المغرب وبسطوا نفوذهم عليه ، وجب ان نجلو في بعض الصفحـات نتيجة انتصارهم هــذا ونقدم لك بياناً كافياً عن النظام الذي انشأوه او حاولوا انشاءه على انقاض الدولة الرومانية السابقة.

ومن المعلوم ان القـــائد جنصريق بادر الى تقسيم المغرب بمجرد مـــا استتبت قدمه بهذه البلاد ، فجعل منهــا ست مقاطعات تختلف في مساحتها وقيمتها الزراعية ، أما الخمس مقاطعات الأولى فكانت عبارة عن المنطقة التونسية الحالية تضاف اليها ناحية تيبسة ، وأما القسم السادس فكان يشمل باقية المغرب الأوسط والأقصى (١) ووزع جنصريق تلك الأراضي الفـــلاحية الخصبة على أولاده وجنوده وخواصه ، واحتفظ لنفسه بأحسنها ، أما الأراضي الباقية فقد تركهـا بأيدي أربابها بشرط أن يدفعوا له ضرائب سنوية ثقيلة

هذا وقد حاول الوندال ان يحدثوا نظاماً ادارياً جديداً ، فلم يفلحوا اذ كانت تغلب عليهم الهمجية والخشونة ، فرأوا من الأنسب ان يحتفظوا بالنظام الروماني القديم ، وذلك ليس

---

(١) والواقع ان نفوذ الوندال بالمغرب الاقصى كان ضئيلاً .

محبة في الرومان أو رغبة في المحافظة على الآثار الرومانية ـ كما يزعم الاستاذ أغوستان بارنار (Augustin Bernard) ولكن عجزاً منهم عن وضع نظام أرقى من الذي كان يسود البلاد في أيام الرومان

وكان جنصريق كسائر خلفائه مستبداً الى أبعد ما يكون الاستبداد ، يتصرف في رعيته كما يشاء ولا يقبل أن يشاطره أحد في الملك ، وقد صمم منذ أول الأمر على إبعاد الشرفاء والاعيان من بين أعضاء الحكومة الذين عرفوا بتعصبهم لمبدأ ما أو بنزعة سياسية خاصة وقد بلغ به استبداده ان أصبح لا يستدعى أعضاء المجلس الشعبي ، وقد كان يشاورهم آونة بعد أخرى في مهام الأمور من قبل ، وهكذا راح يباشر بنفسه مسألة تعيين الموظفين وتنصيب رجال الكنائس وأعضاء المجلس الاستشاري كما كان يتولى بنفسه تعيين سائر الولاة والعمال.

أجل لقد شيد جنصريق مملكة عريضة ، وضرب النقود باسمه ، تلك النقود التي كان يتصرف فيها كما يشاء ، لا فرق عنده بين مالية الأمة وماليته الخاصة ! ولكن مثل هذا التصرف مفهوم في حق ملك أقام دولته على القوة والاستبداد.

ولم يغفل هذا العبقري الحاكم عن مسألة اقرار الأمن في سائر أنحاء البلاد ، فجيش الجيوش وحافظ على الأسطول الهائل الذي كان من الأسباب الرئيسية التي مكنته من الجواز الى المغرب والذي لولاه لانقلب مجرى التاريخ في افريقيا الشمالية وتوجه غير هذا الوجه الذي علمناه وحفظناه !

ثم انه نظم المحاكم على اختلافها سواء منها الخاصة بالوندال او التي وضعوها للفصل بين البربر والرومان (1) ، ومهد السبيل لتشييد الكنائس التابعة لمذهب آريوس ، مذهبه الخاص ، وأبدى كل مساعدة للقائلين بالمذهب المذكور دون سواهم بالطبع

وغني عن البيان أنه بمقدار ما كان جنصريق مستبداً في رأيه متعصباً لدينه بقدر ما كان متشدداً في قضية الأخلاق ، وكان يعلم – فوق ذلك – ان الحياة في المدن من شأنها أن تقضي على الفضيلة والخصال الحميدة ، وهكذا راح يجتهد في اثبات أبناء جلدته من الوندال بالبوادي ، ويحملهم على مزاولة الفلاحة لما يترتب عنها من المزايا الأدبية

ولكن الوندال بصورة عامة لم تطب لهم الحياة بالبادية نظراً لما كان بيدهم من النعمة والخصب، فتركوها شيئاً فشيئاً بعد ما أسندوا حراثة الأراضي الموزعة عليهم الى فلاحين مأجورين، وآثروا البقاء في المدن الكبرى، كقرطاجنة مثلاً ، لما كان يتمتع به أهلها من صنوف العيش وما كان يوجد بها من الملاهي ومحلات الفرجة والاستمتاع .

وكانت مدينة قرطاجنة ، بنوع خاص ، مدينة آهلة بالسكان توفرت فيها أسباب الحضارة ودواعي المتعة والاستهتار، فمن تجارة مزدهرة وأسواق عامرة الى حمامات متعددة

---

(1) تاريخ « افريقيا الشمالية » للاستاذ جوليان (ص 271 - 277) .

ورياض لا تفارق الابتسامة ثغرها ، الى ملاه مختلفة العناصر والأهداف الى انحلال في الأخلاق

ويقبل الوندال على تلك المدينة اقبال المنهوم على الطعام ، ويكرعون من تلك الحياة الفاسدة الماجنة ، فيصبحون محملين بالآثام والأوزار ، وقد فقدوا أسمى ما كانوا يتمتعون به من المزايا والخصال

ويتنبه جنصريق الى هذه الحالة الخطيرة ، فيضرب على يد المستهترين ويرى نفسه مضطراً الى القضاء بالكلية على عدة أحياء اشتهر أهلها بقلة العفاف وانحطاط الأخلاق

ثم يتربع هونيريك على العرش ، فيشجع التجار وتصبح قرطاجنة ، بعد ذلك ، عاصمة تجارية تنتج الزيت والقمح والمرمر وتستورد الحلي والحرير والأشياء النفيسة ، ولا ريب ان في جلب هذه الانواع من البضائع ما يدل على ان طبقة خاصة من سكان العاصمة المذكورة كانت تعيش عيشة الترف والنعيم

أما سياسة الوندال نحو البربر والرومان فانها كانت تمتاز بالقوة وعدم التسامح الديني خصوصاً فيما يتعلق بالرومان، فقد أغلقوا كنائسهم وأبعدوا القسيسين الرومانيين عن البلاد ، أما البربر فقد أثقلوا كاهلهم بالضرائب المتنوعة وحملوهم على هدم تحصينات المدن البربرية حتى لا تحدثهم أنفسهم بالخروج في يوم ما ، عن طاعة الوندال ، واذا كان هؤلاء الوندال ، مع توحشهم ، يرون أنفسهم مضطرين الى التدرع بمثل هذه

الوسائل التحفظية ، فذلك أوضح دليل على انهم لم يتغلبوا على البربر الا بكيفية نسبية ، وطبيعي ، والحالة هذه ، أن تصبح ثقة الوندال بالبربر قليلة .

وفي الواقع فلقد لقي الوندال علىالدوام إعراضاً ومقاومة سلبية لا تنكر من البربر لأن هؤلاء لم يخضعوا لهم تماماً كما لم يخضعوا أبداً لمن تقدمهم من الفاتحين ، ومن يراجع مراحل التاريخ الافريقي يرى ان هذه الحالة إنما هي صادرة عن تأثير المدنية القرطاجنية القوية في نفوس الأهالي ، بحيث ظلوا متشبثين بعوائدهم ، يحسون في أعماق نفوسهم بقوة عاطفية تحملهم على مقاومة الرومان والوندال على السواء متى كانت سياسة هؤلاء وأولئك ترمي الى اخضاعهم وابتلاع شخصيتهم.

ثم ان الباحث عن نتيجة الاحتلال الوندالي من الناحية الأدبية يرى بوضوح وجلاء ان البلاد المغربية لم تحي في أيام الوندال حياة أدبية بمعناها الصحيح، وسبب ذلك انالحكومة لم تهتم بتأسيس المدارس التي هي من دواعي الرقي والتقدم، كما وقع ذلك في أيام قرطاجنة الزاهرة أو في أيام الاحتلال الروماني ، فلقد أعرض الوندال عن ذلك كله ، فظل الجهل ضارباً أطنابه في البلاد ، فلا من يقرأ ولا من يكتب ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كان الوندال المتوحشون أعداء للثقافة يتبرأون منها كما تتبرأ منهم سواء بسواء، بل دفع بهم توحشهم الى تعذيب المثقفين والتنكيل بمن سولت لهم أنفسهم ان يتعلموا الكتابة . . . !

وكل ما يمكن أن يقال في هذا الباب أنه ـ بعد هونيريك ـ كان يوجـد بقرطاجنة بعض الشويعريين في اللغة الوندالية ومما يحكى بهذا الصدد ان جاليمار نظم مرثيات كثيرة باللهجة الوندالية يندب فيها حال الدولة الوندالية ومـا حل بها من الضعف والهوان في آخر أيامها وإذا ما دلت هـذه القصائد على شيء فإنما تدل على أن الوندال حافظوا على لغتهم الوطنية الى النهاية ، وان كانوا يستعملونها في وقت واحد مع اللغـة اللاتينية ، إلا أن اللاتينية كانت لغـة الإدارات والمحاكم والمعـاهد ، والسبب في ذلك ان اللهجة الوندالية كاللهجة البربرية عاجزة عن تأدية بعض المعـاني الدقيقة وخلاصة القول فقد ظـل الوندال يتخاطبون بلغتهم الأصلية ، لكنهم كانوا في بعض الأحيـان يؤثرون استعمال اللاتينية خصوصاً في الدواوين والمحاكم نظراً لأنهـا كانت أكثر انتشاراً من الأولى وأقرب منها لفهم الجمهور

يحسن بنا في نهاية هذا الفصل ان نبحث عن النتيجة التي أحرزها المغرب من الناحيتين المـادية والمعنوية أثناء الاحتلال الوندالي الذي استمر مدة لا تقل عن مائة عـام ، وبعبارة ، فنحن نريد ان نبحث فيما اذا كان للوندال فضل على الأمـة المغربية كما يذهب اليه البعض

الجواب هو ان الباحث المنصف عندما حاول ان يقف على الآثار التي خلفها الوندال من ورائهم لا يعثر على شيء من ذلك

ولسنا نساير الاستاذ جوتيي في حكمه اذ يقول « ان الوندال زرعوا دماً جديداً في عروق الأمة الرومانية الهرمة » ، اللهم الا اذا كان يعني بذلك التجديد تفكيك الامبراطورية الرومانية وتخريبها أجل ، نحن لا نشك في أن المؤرخين الرومانيين واليونانيين كفيكتور دي فيتا (Victor de Vita) وبروكوب (Procope) لم يتحروا التحري كله في تحدثهم عن همجية الوندال ، فالغلو ظاهر في كتابتهم لأن الوندال - أعداؤهم بالطبع - هم الذين انتزعوا من أيديهم بلاداً عريضة ظلت تحت حكم الرومان مدة خمسة قرون ، وخصوصاً لأن ديانة الوندال كانت مباينة للديانة المسيحية،بعيدة عن المذهب الكاثوليكي بعد السماء عن الأرض إذن فلا غرابة ان يتعصب اولئك المؤرخون المعاصرون على الوندال ويبالغوا في وصف أحوالهم الوحشية

لكن الحقيقة المرة التي لا جدال فيها هي ان الوندال بعيدون عن كل ما يسمى بالحضارة ولا يحسبون لها ولا للمتصفين بها أي حساب قل لي بربك ما عسى ان يخلف لنا من الآثار قوم وصفهم المؤرخون على بكرة أبيهم بالهمجية والوحشية ؟ وأي فضل ينتظر من اولئك الذين كانوا يسعون في تعذيب المتعلمين كالمجرمين؟ على ان الامانة في الرواية تحملنا على القول بأن الاحتلال الوندالي أسدى للأهالي منفعة لا تنكر من الوجهة الروحية ، ذلك أنه هو الذي أنزل الضربة القاضية

بالامبراطورية الرومـــانية ، وهي ضربة مكنت البربر من الخروج نهائيـاً عن طاعة رومة هكذا استطاع البربر ان يسترجعوا حريتهم على يد اولئك الوندال المتوحشين بالذات بما حل بهم من الضعف وما اعتراهم في آخر أيامهم من الانحلال الخلقي والاجتماعي

جنصريـــق

يصعب علينا ان نحكم بانصاف عـــلى طبيعة جنصريق والأعمـــال التي قـام بها اذ نحن لا نعرفـه إلا بشهادة أعدائه كفيكتور دي فيتا (Victor de Vita) ، وقد كان يري في جنصريـق مضطهد الكنيسة ، وبواسطة الأخبـــار والروايات التي بلغتنا عنه عـلى يد بروكوب (Procope) ، وكان بروكوب يكن كراهة عظيمة للوندال نظراً لأنه كان افريقياً ، ولأجل هذا يعتبر تعصب «دي فيتا» و «بروكوب» أمراً مؤكداً غير مشكوك فيه ، وبالتـالي فمن المحتمل ان يكونا قد أضافا لجنصريق من النقائص ونسبا له من الاعمـال الوحشية ما لا يليق به ، وقد وصفه « جورناندیس » القوطي فقال

« كان جنصريق متوسط القـــامة ، سقط ذات يوم من فرسه ، فراح يعرج ، وكان بعيد الهمة ، قليل المذاكرة ، لا يميل للرفاهية ، اذا غضب كاد يتميز من الغيظ . وكان فوق

ذلك ، حريصاً على جمع المال ، خبيراً بالطريقة التي تجذب اليه الشعوب ، ولم يأل جهداً في بث دواعي الشقاق والتفرقة فيما بينها » .

ومهما يكن حكمنا على هذا المتوحش فقد حاز نصيباً من العبقرية والعظمة ، بل كان اكثر اطلاعاً على دوالب السياسة من آتيلا (Attila) وألاريك (Alaric) عديليه في ارتكاب الجرائم ، وقد استولى على قبائل لم تغلب على امرها من قبل ، وأقام مملكة واسعة على أشلاء الامبراطورية الرومانية كما أقامها على أجناس أخرى مختلفة العناصر ، فهابته كل القبائل الساكنة على ساحل البحر الأبيض المتوسط من بوغاز جبل طارق الى مضيق « ماسينا » ، وكان جنصريق كسائر القواد المتوحشين « محترماً » للمدنية الرومانية ، بمعنى انه حافظ على النظم الإدارية والمؤسسات الرومانية

أما العدل ونظام الضرائب فكانا في أيام جنصريق على ما كانا عليه من قبل ، وإذا كان الكاثوليكيون قد تحملوا بمشقة وتعب الأوامر القاسية التي كان يمليها عليهم جنصريق ، فان افريقيا الشمالية لم تشهد ـ على ما يظهر ـ بؤساً شديداً في أيامه ومن الممكن ان يكون جنصريق قهر البربر ولكن أعماله منيت ، في آخر الأمر ، بالفشل التام ، وذلك شأن المؤسسين كافة الذين لا يعتمدون إلا على القوة والجبروت ، فلا يبقى امرهم قائماً إلا بفضل عبقريتهم القوية .

هذا ولقد اضمحلت عظمة الشعب الوندالي بمجرد وفاة هذا الزعيم الأكبر ، وعجز خلفاؤه عن القيام بأعباء الملك ، فلم يحتفظوا به إلا أياماً معدودات وكانت وفاة جنصريق سنة 477 م .

عن « موجز تاريخ الجزائر » للاستاذ كات.
ج. 1 (ص 211)

(تعريب المؤلف)

الفصل السابع

البيزنطيون بالمغرب

(534 - 640 م .)

كلمة عن البزنطيين - استيلاؤهم على المغرب - معركة تراكاروم وأسباب سقوط الوندال - النظام الاداري في ايام البزنطيين - عصر الاضطراب - سياسة الروم - الحالة الدينية - الحياة الأدبية والفنية في ايام البزنطيين - خاتمة.

أشرنا في الصفحات المتقدمة الى ان الامبراطورية الرومانية تنقسم قسمين الدولة الرومانية الغربية وقاعدتها رومة التي خلدت ذكرها في الشمال الافريقي بما حققته من أعمال في سائر الميادين ، والدولة الرومانية الشرقية التي كانت عاصمتها بزنطة (Byzance) أو القسطنطينية (Constantinople)

وقد عرفت هذه الدولة الأخيرة بدولة البزنطيين نسبة الى بزنطة ، وأما العرب فكانوا يطلقون لفظة « الروم » على الدولة الرومانية الشرقية بنوع خاص

وغني عن الاثبات ان كل من أراد ان يطلع على تاريخ المغرب في مختلف أطواره وفي أيام الفتح الاسلامي بالخصوص يضطر الى أن يزود نفسه بمعلومات كافية تتعلق بنظام حياة الروم وأساليبهم السياسية ومميزاتهم الأدبية والفنية، ذلك لأن الرومان أول دولة منظمة وجدها العرب الفاتحون في طريقهم، فما كان إلا ان اكتسحوا بلادهم واستولوا شيئاً فشيئاً على ممتلكاتهم أضف الى هذا ان العرب تأثروا الى حد بعيد بسياسة الروم وعلومهم التي أخذوها عنهم بطريق الوضع تارة والترجمة تارة أخرى ، كما قلدوهم ـ بمفعول قانون الاختلاط والاحتكاك ـ في كثير من العادات التي كان لها بعد ذلك أسوأ الأثر في نفوس العرب

لكل هذه الأسباب السياسية والعلمية والاجتماعية وجب ان نقول كلمة عن أحوال الدولة الرومانية الشرقية ولو باختصار

وبعد ، فقد عاشت الدولتان الرومانيتان ما شاء لهما ان تعيشا حتى كانت الحملة الوندالية على الرومان في افريقيا الشمالية ، تلك الحملة الشعواء التي كانت بالنسبة اليهم صدمة عنيفة أصابت القوة الرومانية في الصميم .

على ان هؤلاء الوندال لم يتمكنوا من مد يدهم الأثيمة الى العاصمة البزنطية ، وذلك لا لأن نظام الروم كان أرقى من النظام المعمول به اذ ذاك في الامبراطورية الغربية ـ حسبما يذهب اليه بعضهم ـ ولكن لمجرد وقوع القسطنطينية ،

عاصمة الروم ، فيما وراء جبال البلقان الوعرة التي هي بمثابة السد المنيع في أوروبا الوسطى ، بحيث لم تتمكن الشعوب الجرمانية المذكورة من اجتيازها ، وهكذا قدر للدولة الرومانية الشرقية ان تعيش مدة الف عام بعد اضمحلال الامبراطورية الغربية لأسباب جغرافية محضة لا غير

ومعلوم ان سلطان البزنطيين كان يمتد الى البلقان وسوريا ومصر وبرقة، وبما أن فتح هذه البلدان كان على يد الاسكندر المقدوني (Alexandre de Macédoine) فقد كانت عوائد أهلها ولغتهم وسائر أحوالهم تمتاز بطابع يوناني محض، في حين ان شمال افريقيا واسبانيا وجزر البحر الابيض المتوسط التي كانت في قبضة الرومان منذ عدة قرون ، كانت تظهر بمظهر لاتيني خاص وتهيمن عليها حياة لاتينية صرفة .

وتعاقبت القياصرة على عرش المملكة الرومانية الشرقية في عيشة راضية حتى أتى عهد يوستينيانوس (Justinien) في أواسط القرن السادس الميلادي ، وكان يوستينيانوس ـ إذ ذاك ـ ينظر في مرارة الى ما آلت اليه الامبراطورية الغربية فتحدثه نفسه الموصوفة بالطمع والتعصب والتحزب بجمع شتاتها وانتشالها من يد الوندال الجرمين .

ولما وصله كتاب جاليمار الآنف الذكر ، ينهاه عن تدخله في شؤون المغرب ورأى في لهجته الشديدة ما يحط من قدره، وجد ان الفرصة قد سنحت له وصمم إذ ذاك على محاربة الوندال في عقر ديارهم ثم جمع الوزراء والأعيان والقسيسين

وأخبرهم بأنه عازم على جمع شتات الدولة الرومانية وأحياء القضية الكاثوليكيه في المغرب بعد مـــا طغى عليها المذهب الآري الذي وجد – كما هو معلوم – كل مناصرة وإسعاف من طرف الحكومة الوندالية المغتصبة ، لكن أعضاء المجلس بمـا فيه كبراء الروم ووجهاؤهم لم يجيبوا يوستينيانوس الى طلبـه بدعوى ان الجيوش الرومانية كانت قد أخفقت مرة سابقـة عند محاصرتها لمدينة قرطاجنة على يد الأميرال بازيليكوس[1] هذا بغض الطرف عن الهزيمة الشنعاء التي حملهم الفرس إياها والتي لم تزل عواقبها الوخيمة ماثلة أمام أعين الجميـع !

لكن مطامع الامبراطور السياسية وإحساساته الدينية ، ثم إلحاح بعض الرهبان والقسيسين وقـــد انضم إليهم وفد الرومـان المهاجرين الذين وجدوا في تلك المناسبة خير فرصة للانتقـــام من عدوهم المشترك [2] ، كل ذلك زعزع بالطبـع صفوف المعارضين ، وهكذا رجحت في المجلس سياسة الحرب والانتقام

وأخذ الامبراطور الاحتياطات اللازمة في مثل هـــذه المواقف ، فعقد ـ قبل الشروع في العمل ـ اتفاقية سرية مع أهالي طرابلس وسردينيا ، ثم جمع جيشاً يبلغ عـــدده خمسة

(1) أنظر « مفتاح التاريخ » لصاحبه محمد البشير (ص 233)

(2) كان عدد من الرومـان في أيام الاحتلال الوندالي قـــد اضطروا الى الهجرة والالتحاق بالقسطنطينية لكثرة ما نالهم من العسف والاضطهاد على يد أولئك الوندال المتوحشين .

عشر ألف محارب وأسند قيادته للجنرال بالبزار (Bélisaire) ، وفي الوقت نفسه جهز أسطولاً عتيداً يضم خمسمائة قطعة حربية وذات يوم من صيف سنة 533 م. أقلع الأسطول من القسطنطينية وتحرك الجيش بين هتافات الشعب وتهاليل الرهبان

وكان الوندال ، إذ ذاك ، قد بلغوا من الضعف والانحلال مبلغاً يفوق حد التصديق ، لا يستطيعون معه إخماد ثورة بافريقيا حتى يندلع لهيب ثورة أخرى بسردينيا

وينزل بالبزار بالتراب المغربي [1] ، فلا يلبث أن ينفصل عن الوندال عدد كبير من البربر والوندال أنفسهم ، لما نالهم هم الآخرين من العسف وما حل بهلدريك — صاحب التاج — من الإهانة والاحتقار من قبل جاليار المغتصب ويقوم بالبزار ويخطب في الجيش على ملأ من البربر اللاجئين اليه قائلاً ما مؤداه بالتقريب « اعلموا انني ما أتيت لهذه البلاد إلا لأخذ الحق من الظالم فأرده الى المظلوم ، ولست أضمر عداوة للأهالي أو الوندال أنفسهم ، ومهمتي تنحصر ـ كما تعلمون ـ في الأخذ بالثأر من جاليار وحده» . ثم سأل الجنود ألا يتعرضوا لأموال الناس وحذرهم من انتهاك حرمات الشعب [2] فوقعت هذه الخطبة وقعاً حسناً في نفوس الرومان والبربر المجتمعين حول بالبزار ، وإذا هم يحملون جميعاً على قرطاجنة . وبينما

(1) بين مدينتي صفاقص وسوسة بالضبط
(2) قابل بين هذا الأسلوب وأسلوب طارق بن زياد وهو يخطب في جيشه استعداداً لشن هجوم على نصارى الاندلس ولاحظ كيف أن كلا الاسلوبين قوي متين ينم عن نفس مؤمنة بالانتصار

جنود باليزار يجدون السير نحو العاصمة كان جاليار بعيداً عنها في بعض ممتلكاته يتنزه (1)

وبعد زمان غير يسير ينتبه جاليار من سكرته ويحاول الوقوف في وجه الجنود البزنطية ،فتقوم من جراء ذلك معارك حامية الوطيس بين الروم والوندال تدور الدائرة فيها على الآخرين ، وما هي إلا عشية حتى يدخل الروم قرطاجنة براً وبحراً ، وجوههم متهللة مستبشرة ، فيقبل عليهم أمراء البربر من شتى انحاء المغرب ، يقدمون لباليزار عبارات التهاني والاخلاص (2) ، فيقرهم باليزار في مناصبهم ويقدم لهم من الصلات والخلع ما يضمن له طاعتهم وولاءهم

أما جاليار المنكوب فقد فر بنفسه على أثر هذه الهزيمة الشنعاء ، ملتجئاً الى مكان يدعى بولاريجيا (Bulla Regia) وهناك راح يؤلف جيشاً جديداً بقصد اقتحام العاصمة القرطاجنية ، فاستدعى الكتائب التي كان قد بعث بها من قبل الى جزيرة سردينيا ، ومشى على رأس تلك الجنود نحو العاصمة ولما لم يتمكن من اقتحامها نظراً للحصون المنيعة التي شيدها الروم من حولها ، اتقاء لخطر الأعداء ، ضرب

---

(1) لعمري انه لموقف غريب يدعو الى الاسف الشديد ويذكرك بحالة المعتمد بن عباد الشاعر إذ كان يمرح ويلهو في بعض بساتينه خارج المدينة والعدو آخذ في محاصرة طليطلة التي كان سقوطها في يده خطوة أولى في سبيل انتعاش الاسبان وضربة قاضية على رؤوس ملوك الطوائف .

(2) راجع مفتاح التاريخ (ص 236)

عليها الحصار ، وكانت جيوشه معسكرة وقتئذ ، في مكان يدعى تراكماروم (Tricamarum) ، وامتنع بالبزار داخل المدينة ، لا يبدي أية حركة حتى سنحت له فرصة مواتية — وللفرص أثرها الغريب في كثير من الأحيان — فخرج بغتة على جاليمار في جماعة من الفرسان ، انقضت على جيوشه ، فمزقتها شر ممزق ولما شاهد جاليمار ما كان من سوء حظه لاذ بالفرار ، وتبعته شرذمة من عساكره المخلصين ، والروم من ورائهم حتى بلغوا جبال زواوة بالمغرب الأوسط ، فأحاطوا بجاليمار احاطة السوار بالمعصم ، وهناك أدركه اليأس فاضطر جاليمار للاستسلام

ويحمله القائد بالبزار الى القسطنطينية أسيراً ، فيتقدم الى القيصر — والوعتاه ! — في حالة من الذل لا سبيل لوصفها

أجل ، كان يوم جاليمار يوماً مؤلماً حقاً ، وكان مؤثراً حقاً حينما برز أمام الامبراطور ، كأنه يشكو تبرم الدهر وتصرفات الزمن الغادر — وللدهر نوائب وصروف — متذكراً في مرارة أيام اللهو التي طوتها السنون وكأني بهذا البائس المغرور الذي عاكسه الحظ ولم تظلمه الأقدار قد وقف بين يدي الامبراطور كئيباً ولسان حاله يقول

والله لو كانت الدنيا بأجمعها تبقى علينا ويأتي عيشها رغدا
ما كان من حق حر ان يذل لها فكيف وهي متاع يضمحل غدا

ويرق قلب الامبراطور لهذا الغريب البائس ، فيجعل

رهن اشارته قصراً من قصوره ، حيث يقضي جاليمار بقية أيامه بين الغربة والوحشة حيناً والحسرة والتفلسف حيناً آخر!

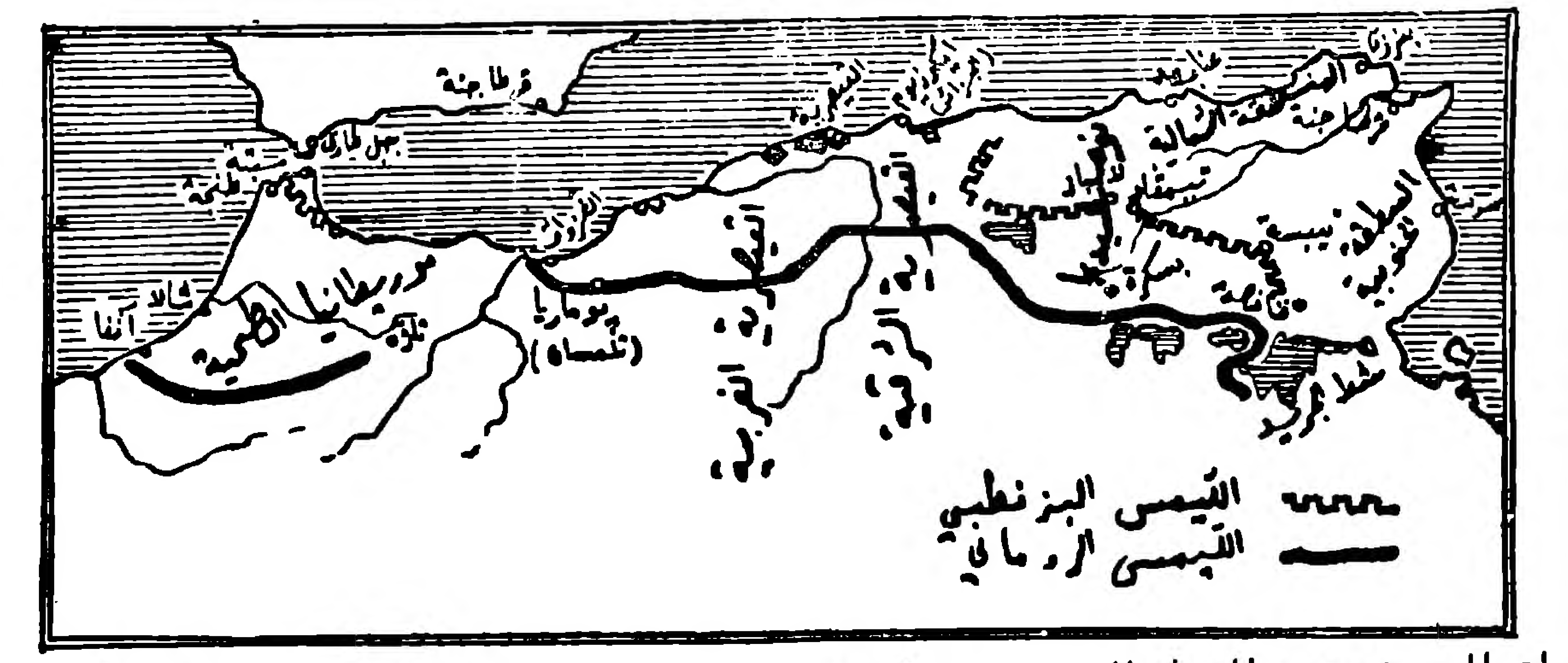
هـــذا واذا أردت ان تستقصي الأسباب التي أدت الى انهيار الدولة الوندالية ترى انها ترجع في الجملة الى سوء معاملة الوندال للبربر والرومان على السواء واخلادهم الى عيشة البذخ والرفاهية التي يعتبرها المؤرخون الاجتماعيون من أهم الأسباب الباعثة على تسرب الضعف الى الأمم والشعوب

ولم يكد الاسطول البزنطي يأخــذ في الرجوع الى مقره حتى شرع الامبراطور جوستينيان في تطبيق ذلك البرنامج الذي أعده لاعادة تنظيم المغرب ومكافحة السلالة الوندالية هناك حتى تضمحل وبالفعل عين ابتداء من سنة 534 م. حاكماً عاماً على البلاد له السلطة المطلقة على سائر الامـــور الادارية والمالية والعدلية وهـــذا الحاكم العام كان يساعده مباشرة في القيام بأعمـــاله عدد من المستشارين والموظفين خصوصاً فيما يتعلق بمسألة المالية وكان البرنامج المشار اليه يقضي بإعـــادة تقسيم البـــلاد ، فوقع تقسيمها الى سبع مناطق وهي

1 – المنطقة الشمالية (Zeugitane) ، وهي عبارة عن شمال تونس

2 – المنطقة الجنوبية (Byzacene) او الجنوب التونسي .

3 – نوميديا (Numidie) وقاعدتها قسنطينة (Cirta) ،



المناطق التي خضعت بالفعل للبيزنطيين بالنسبة للاراضي التي احتلها الرومان في افريقيا الشمالية

4 – القيصرية الشرقية (Mauritanie) ومركزها مدينة سطيف (Sitif) بالجزائر

5 – القيصريـة الغربيــة (Mauritanie Seconde) ومركزها القيصرية شرشال (Césarea) التي مر ذكرها في شيء من التفصيل

6 – موريطانيا الطنجية (Mauritanie Tingitane) أو المغرب الأقصى وقاعدته إذ ذاك مدينة سبتة ذات التاريخ الحافل في الغابر والحاضر

7 – جزيرة سردينيا (Sardaigne)

وكان لكل من المناطق السابقة عامل يدير شؤونها تحت نظر الحاكم الكبير ، صاحب قرطاجنة ، وهذه الوظائف كانت تباع بأعلى ثمن مستطاع ، ومعلوم ان المرشح لرتبة عامل مثلاً ، لم يكن ينفق الاموال الباهظة لنيل الوظيفة المذكورة الا ليستثمرها بكل معنى الكلمة ويحصل في أقرب وقت على ثروة ضخمة عريضة مهما كلفه الامر؛ فلا غرابة – والحالة ما ذكر – ان تعددت الضرائب والاتاوات على اختلافها وكثرت نفقات الدولة ؛ فثقلت المغــارم على الرعايا مما حمــل المؤرخ بروكوب (Procope) على القول بأن الظلم والتعدي الصادرين عن الادارة البزنطية فيما يتعلق بالمسألة المالية كانا سببين في امتصاص ثروة البلاد المغربية وافقار أهلها

أما الجند المرابط في شمال افريقيــا ، فكان يتألف من عناصر ثلاثة .

1 - البزنطيون ومنهم الفرسان والمشاة

2 - البربر

3 - الجنود المأجورون

وكان يترأس هـذا الجند قائـداً اعلى يدعى باللاتينيـة (Magister Militum) ومركز قيادته قرطاجنة وكان هذا القائد يستعين على القيام بأعماله العسكريـة بملازم يتولى خصيصاً قيادة فرق المشاة (Magister Peditum) وغني عن البيان ان هـذه الجنود المرابطـة بالتراب المغربي لم تستخدم لفائدة اقرار الامن فحسب بل استعملها الرومان لتشييد حصون منيعة تعينهم على دفع شر العدو كما فعل من قبلهم الرومان ابناء اعمامهم الذين كان جوستينيـان يفتخر بنظامهم ويحرص كل الحرص على اقتفاء آثارهم

والواقع ان تلك السلسلة من الحصون الواصلة بين أهم المدن المغربية تعتبر بمثابة حدود فاصلة بين الصحراء والمناطق الواقعة بالفعل تحت سلطة البزنطيين

والمؤرخون يخبروننا ان تلك السلسلة من الابراج كانت تذهب من مدينة قفصة فتصلها بتيبسة ثم تعرج عـلى تيمجاد (Timgad) ولامباز ومن هناك تنحدر الى الجنوب قليلاً؛ ثم تستقيم عمودياً فتتوجـه الى الشمال ؛ ومن ثم تنعطف غرباً لتحاذى البحر الابيض المتوسط عندما تبلغ المنطقة التي توجد بها مدينة رأس ماتيفو (Rusguniae) والجزائر (Icozium).

وتيبـــازا (Tipaza) وشرشال (Cesarea) وتنس (Cartennas)[1].

أما في المغرب الاقصى فقد كان نفوذ البزنطيين ضئيلاً لا يشمل سوى المنطقة الشمالية منه وخصوصاً مدينة سبتة نظراً لموقعها المناسب بين البحر المحيط والبحر المتوسط على بضعة أميال من بلاد اسبانيا يستنتج اذن من البيان السابق ان المساحة التي وقعت فعلاً تحت نفوذ البزنطيين كانت ضعيفة بالنسبة للمنطقة التي كانت تسيطر عليها الدولة الرومانية ابان عظمتها فهـل في ذلك ما يشعرنا بتضعضع موقف الفاتح الاجنبي وتطور الحالة السياسية بصورة عامة في المغرب ؟ او على العكس، هل رغبة البزنطيين الحقيقية كانت ترمي الى تحديد دائرة النفوذ البزنطي؟ يقول بعض المؤرخين جواباً عن السؤال السابق: ان الذي كان يهم البزنطيين من المغرب ، قبل كل شيء وبعد كل شيء ، هو الاستيلاء على الموانىء والمرافىء ، وذلك لأغراض تجاريـــة محضة ، مثلهم في ذلك كمثل القرطاجنيين من قبلهم

أما نحن فنعتقد ان هذا التحليل وحده لا يصيب الحقيقة في الصميم بعـد ما علمنـــا من عزم يوستينيانوس على انتشال الامبراطورية الرومانية من الهوة التي وقعت فيها وبسط اقوى ما له من نفوذ على بلاد المغرب ؛ ولذلـــك نعتقد مع جمهور المؤرخين أن تقلص منطقة الاحتلال في ايام البزنطيين ليس مجرد اتفاق ، ولم يكن للبزنطيين فيه أية رغبــة ؛ بل هو نتيجــة

1) انظر الخريطة صفحة 149.

لتطور سياسي ملموس ، وهو دليل قاطع على تنبه الاهالي وانتقالهم من مرحلة الفتور والانقياد الى دور الحركة والوعي القومي ؛ ولعل ان ما امتاز به هذا العصر البزنطي من كثرة الاضطرابات وتعددالقلاقل مما جعل البزنطيين يكابدون الامرين مع الاهالي حتى في أوائل فترة الاحتلال ، وذلك بالنظر الى سرعة تنقل فرسان البربر وعدم تمكن الجنود البزنطية من مجابهة الجنود البربرية ومقاتلتهم وجهاً لوجه والواقع انه كان من المستطاع ان يقضي البربر على قوة البزنطيين فيخرجوهم من بلادهم ؛ ولكن البزنطيين عرفوا كيف يبذرون بذور الشقاق بين الاهالي من حضريين وبدويين ؛ فضربوا بعضهم ببعض وضمنوا اخيراً لانفسهم السيادة على الجميع ويمكن ان نقول بأن تاريخ المغرب ابتدأ من عصر البزنطيين هذا هو عبارة عن كفاح مستمر مرير بين الجماعتين المذكورتين ، اهل الحضر واهل الوبر وبعبارة أخرى بين ساكني المدن وساكني الخيام.

أجل لقد اندلع لهيب الثورة الأولى ضد الروم ، فتجرد لمقاومتها حاكم معروف يدعى صولومون (Solomon) لهخبرة كبرى بالشؤون السياسية ، فانتصر على الاهالي؛ ويظهر ان صولومون هذا الذي كان على بينة من شؤون السياسة العامة لم يكن يعلم شيئاً كثيراً عن سياسة الجنود والعساكر ؛ ولذلك ساءت معاملته معهم فكانت النتيجة ان انفضوا من حوله وانضموا الى بعض رفاقه اسمه صتوزاس (Stozas) وكان صتوزاس قوي العزيمة ، يمتاز بالشجاعة والاقدام. فقاد صفوفهم

الى قرطاجنـــة واشعلوا فيها النيران ، فاضطر صولومون الى الفرار ثم اقبل القائد باليزار الشهير ، فهاجم البربر وانتصر عليهم مرة اخرى انتصاراً لا مثيل له

وعاد صولومون الى منصبه الاول بقرطاجنة وراح يعمل كل ما في وسعه لاقرار الامن والنظام ولكن صفاء الجو لم يدم طويلاً ؛ فقد ثار بربر طرابلس على الحكومـة البزنطية ؛ وتجرد صولومون لمقاومتهم ، فكان هذه المرة قليل الحظ ، اذ كبا به فرسه ، فلقي حتفه أثناء المعركة

واستمرت الثورات وتوالت القلاقل والنكبـات على عهد ولاة ليس لهم أدنى درايـة بدواليب السيـاسة حتى تنبـه الامبراطور الى ضرورة جعل حد لهذه الحالة المؤلمة ، فبعث الى المغرب حاكماً قديراً له خبرة بـأحوال البلاد هو جان طروجليطة (Jean Troglita).فما كاد طروجليطة يلتحق بمقره الجديد حتى شمر على ساعديه وبعث لعدة قبائل بربرية يساومها في عدم التدخل في الكفاح القائم بينه وبين جماعـة الثوار ؛ فلما تم له ما كان يريد حمل على البقية الباقية مـن البربر واستولى على سائر البلاد.فعاد الهدوء ورجعت السكينة في كل ناحية منها ولو كان ذلك بصورة مؤقتة

هذا ولم يتبع الروم سياسة واحـدة مع مختلف السكان فبينما كانوا – مثلاً – يعاملون الوندال بمنتهى القساوة والشدة لأسباب ظاهرة لا حاجة الى تكرارها ، كانت سياستهم مع الرومان مطبوعة بطابع الرفق واللين وقد حملت الحكومة

البزنطية بعض الوندال على الانتقال الى القسطنطينية ؛فسخرهم الامبراطور لخدمته الخصوصية ؛ أما الذين لبثوا بافريقيا فانهم تجرعوا من كؤوس الذل والهوان الشيء الكثير منعهم القيصر عن التجاهر بالديانة الآريـــة وحرم عليهم الانخراط في سلك الموظفين ، بل استصفى منهم الاملاك التي اغتصبوها، قبلاً من يد الرومان ، والحقها بالممتلكات القيصرية وبكلمة واحـدة عمل الامبراطور على محق السلالة الونداليه بشتى الوسائـــل المشروعة وغير المشروعة، سواء بمناسبة أو بغير مناسبة، دون أن يتفطن الى ما سيترتب عن ذلـك من نقص في العمران وفساد في الملك ومعلوم ان « حصول » النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بـــد منه ووباله عائد على الدول (1).»

أما سياسة الروم مع الرومان فكانت — كما اسلفنا — لينة نظراً للعلاقات الودية والروابط الدينية التي كانت تجمع بـين هاتين الامتين ؛ وفعلاً فقد عمل الروم على استجـــلاب ذرية الرومان والتحبب اليهم وبيان ذلك ان الحكومة اصدرت امراً يقضي على الوندال برد جميع الاملاك التي اغتصبوها من الرومان إلى اصحابها ومن الطبيعي ان يحدث مثل هـــذا القرار قلقاً عظيماً في النفوس ؛ ومن الطبيعي أيضـاً ان يثير الرغبة والطمع في بعض النفوس الاخرى التي لا تراعي في الله

---

1) مقدمة ابن خلدون ص. 288

الا ولا ذمة ؛ فتجعل طائفة من الروم تقوم فتطالب بأملاك تارة بحجة وتارة اخرى بغير حجة ومفهوم ان هـذه الحالة المرتبكة انما هي ناجمة عن القوة والتأييـد اللذين وجدهمـا الرومان في جانب الحكومة الرومية

أما البربر – أهل البلاد – فقـد سلك معهم الروم سياسة خاصة قوامها استمالة الرؤساء وبذر بذور الشقاق فـيما بينهم وقد كان الروم يعلمون – كما علم الرومـان قبلهم – انهم لا يزالون بخير ما دامت كلمة الاهالي متفرقـة لم تجتمع وقلوبهم شتى ؛ ولهذا كانوا يستقدمون رؤساء البربر لقرطاجنة ؛ فيسبغون عليهم من الحلل والخلع ما يثلج صدورهم ويجعـل ألسنتهم رطبة بالثناء عليهم ؛ ثم يوسوسون لهم حتى يغيروا بعضهم على بعض ولو علمت ما كان بـين رؤساء البربر من البغضاء والشحناء والتنافس في أتفه الأمور وأحقرها شأنـاً لعرفت مقدار تطاحنهم وتهافتهم على أبواب الحكومة البزنطية سعياً في اشباع رغباتهم وتحقيق مصالحهم الشخصية كل ذلك والروم ينظرون اليهم في شيء من الغبطة والارتيـاح بما نفذ فيهم من سياسة التفرقة والسيادة .

ولما أراد يوستينيانوس ان يشهر الحرب على جاليار لانتشال الامبراطورية الرومانية من أيدي الجرمان كان ينوي في الوقت نفسه مساعدةالكنيسة واعادة الكاثوليكية الى ما كانت عليه من القوة والجبروت. ولقد ساعده الرومان على تطبيق

هذه النقطة الثانية من البرنامج ؛ فبالغوا في اضطهاد الونـدال وأصحاب المذهب الدونتاني (Les Donatistes) وأفرطوا في تعذيب اليهود الذين منعوا من الالتحاق بسلك الموظفين ؛ فهاجروا إلى البوادي وفي أنفسهم ما فيها من الحقد والغضب على الحكومة القائمة ثم أمر الامبراطور بترسيم الكنائس القديمة وبناء كنائس أخرى على شكل هندسي لطيف يبرهن لك على أن المهندسين المغاربة في ذلك الزمان ، كانت لهم يد طويلة في فن التزويق والترخيم

لكن الكنيسة أصيبت آنذاك ، في بلاد المشرق ، بداء عضال سرعان مـــا سرى في أحشاء الكنيسة الافريقية ؛ وذلك المرض الذي أوهن منها العظم هو داء المناقشات الجزئية ـ المعروفة بالبزنطية نظراً لتفاهتها ـ والخلاف لمجرد الخلاف في المسائل المذهبية وسادت الفوضى من جراء ذلك فيما بين القسيسين وكثرت بينهم دواعي التحاسد والبغضاء ، وانحطت أخلاقهم إلى درجة لا يمكن تصورها ؛ ثم شاعت مرة أخرى مذاهب دينية شتى عملت على محاربة الـكاثوليكية أو كانت على الأقل حجر عثرة في سبيل تقدمها ؛ وممـــا زاد في الطين بـــلة مشاركة القسيسين المصريين في الخلاف العام وكانوا قد نزحوا عن مصر على إثر دخول المسلمين إليها

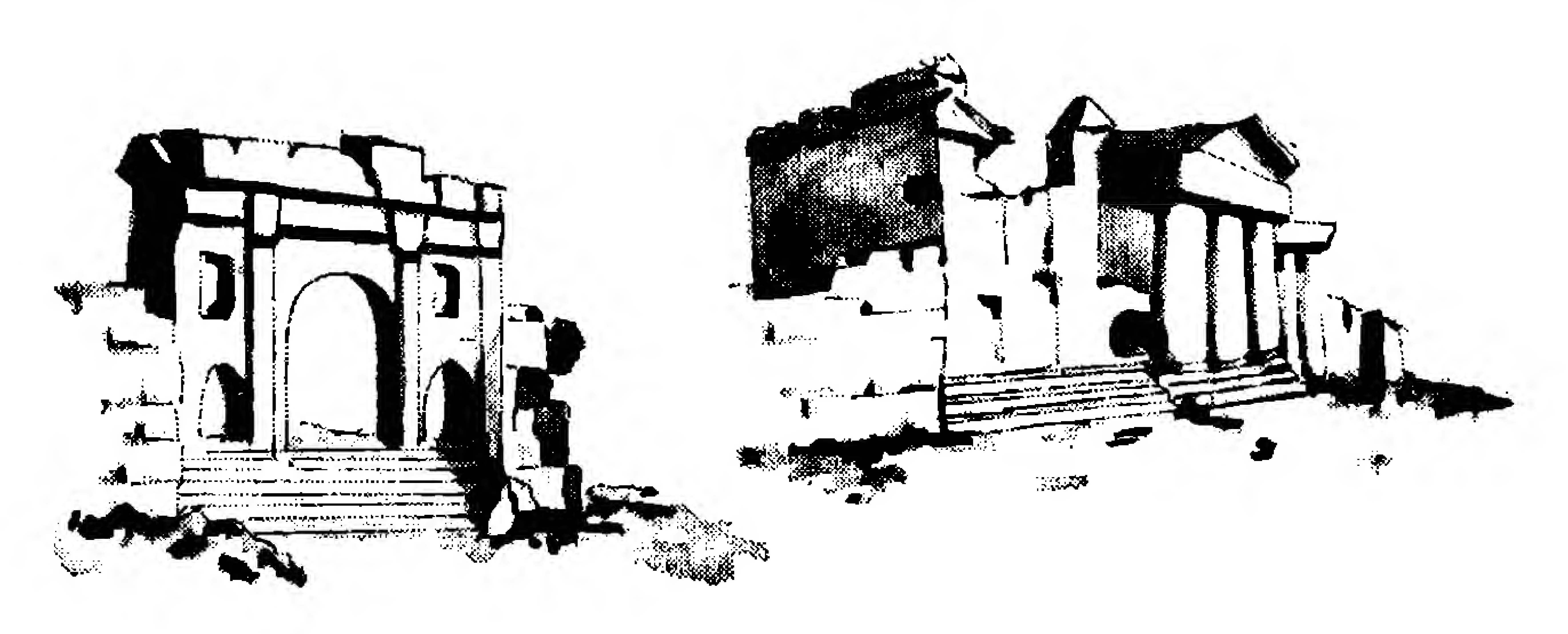
وخلاصة القول فإن ذلك الخصام المذهبي العنيف كان من

الأسباب الرئيسية التي فككت أوصال الامبراطورية الرومية بالمغرب ومهدت السبيل للعرب الأشاوس الذين طلعوا عليها إذ ذاك من طرابلس ، يضربون أكباد الإبل إلى المغرب ، بين صهيل الخيول وقعقعة السيوف

ولم يمنع البزنطيين ما كانوا يقاسونه من المحن في سبيـــل اخمـــاد الفتن واستجلاب رؤساء البربر ، واضطهاد طائفة لا يستهان بها من السكان من ممارسة الآداب والاشتغال بشتى العلوم والفنون فالمؤرخون على بكرة أبيهم يخبروننا بأن بضاعة العلوم والآداب كانت نشيطة نافقة في أيام البزنطيين ولا سيا في مدينة قرطاجنة ولقـــد اهتم البزنطيون بصفة خاصة بنشر العلم وإحداث المدارس في أهم المدن والعواصم ؛ غير ان الآثار الأدبية التي جادت بها قرائح كتاب ذلك الجيل وأدبائه عبثت بها يد الإهمال ؛ فلم يصلنا من كل ذلك سوى منظومة لاتينية واحدة من نظم الشاعر الافريقي كوريبوس (Corripus) كتبهافي مدح الحاكم البزنطي جان طروجليطة وسماها « اليوحانية »[1] (La Johannide) ونحن وإن كنا نشك كثيراً في قيمة الناظم إلا إننـــا نرى للقطعة في حد ذاتها فائدةتاريخيةعظيمة ،لا لكونها تتضمن مدحطروجليطة وتعدد مزاياه ، بل لانها تشمل على وصف دقيق لبلاد المغرب وأحوال المغاربة في أيام كوريبوس

---

(1) نسبة الى جان (أو يوحنا Johannes) طروجليطة



هياكل جميلة بمدينة سبيطلة (تونس)

أما من الناحية الفنيه فقد برهن البزنطيون على علو كعبهم فيها ؛ آثارهم المعمارية الجميـــلة لا تزال ظاهرة للعيان نذكر منها على سبيل الاشارة تلك الكنائس الفخمة التي تفننوا في تزويقها وتجميلها والحصون المنيعة التي شيدت حول أهم المدن والأسوار والمعابد والهيا كل المزينة بالفسيفساء والرخام التي بقيت منها بعض الأطلال الجميلة بمدينة سبيطلة (Suffetula)

كل هذا وذاك يظهر لنا بوضوح انه كانت للبزنطيين قدم راسخة في فن الهندسة والعمارة.

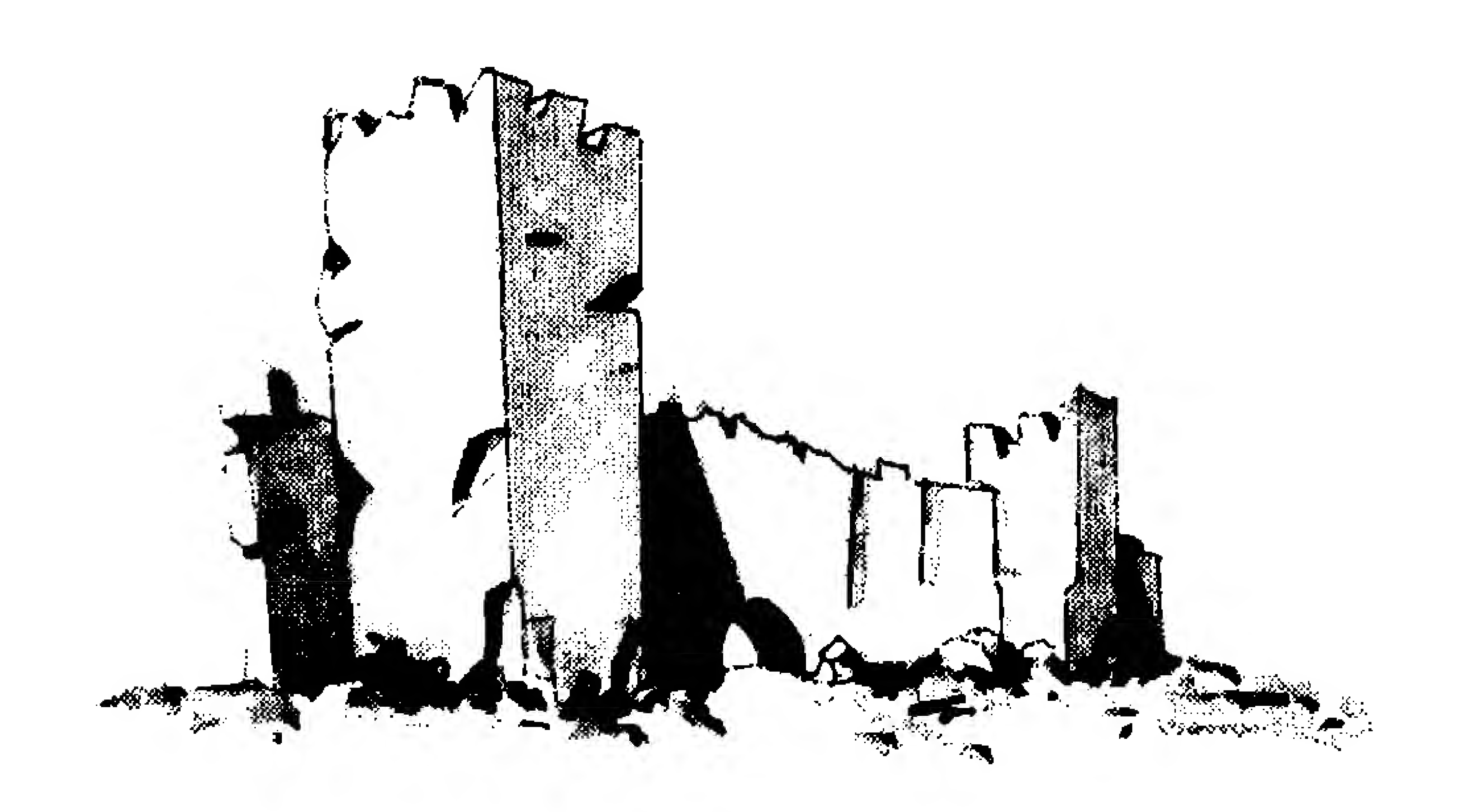
وبعد فان المتتبع لأهم مراحل التاريـخ المغربي القديم التي جلوناها في الصفحات المتقدمة لا بد من أن يلاحظ هناك ظاهرتين خطيرتين قد امتازت بهما هذه الحقبة من الزمـــان ابتداء من نزول الفينيقيين بالمغرب إلى عهد البزنطيين

وهاتان الظاهرتان هما عدم تمكن الأهالي من الحصول على

الوحدة السياسية المنشودة ثم سرعة تعاقب الفاتحين على هذه البلاد ، الأمر الذي دفع ببعض المؤرخين إلى القول بأن الشعب المغربي مجرد عن كل مزية روحية تذكر

وغني عن البيان ان في هذا التصريـح ما فيه من الغـلو والتعصب ، إذ يكفينا أن نسرد لك أسماء بعض العظماء الذين انجبتهم هذه البلاد كحنبعل ومسينسا وأوغستان والكاهنة وطارق بن زياد ويوسف بن تاشفين وعبد المومن وابن خلدون وغيرهم وغيرهم لنقيم البرهان على بطلان التصريح الانف الذكر.

وإذا كان الشعب المغربي قد استسلم بسهولة للفاتحين من قرطاجنيين ورومانيين ووندال وبزنطيين ، وجعل البربر في حالة يعجزون معها عن العمل لغاية واحدة والحصول على الوحدة السياسية المنشودة التي طالما سعى من أجلها الخطباء.



قلعة بزنطية بالمغرب (تونس)

وتغنى بها الشعراء فذلك يرجع إلى قلة طرق المواصلات التي لها أثرها البعيد في تقريب المسافة بين الجماعات ، كما يرجع إلى انقسام البربر شيعاً وأحزابـــاً وتنافسهم في الحصول على أغراضهم الشخصية قبل العمل للمصلحة المرسلة ؛ ثم ان الذي عاق أولئـــك البربر عن التقدم أكثر من هذا كله وعرقل مساعيهم الكبرى هو عدم تدينهم بديانة سماوية سمحة تعمل على توحيد صفوفهم وبث الثقة فيما بينهم

ولعل أن الإسلام سيكون عاملاً كبيراً على توحيد تلك الصفوف وبث الثقة في النفوس استعداداً للحصول على الوحدة السياسية المنشودة

حالة الروم قبيل ظهور الاسلام

على عهد يوستينيانوس الاول يعني في اواسط القرن السادس بعد المسيح انتقلت دولة الروم من حيز الدفاع الى مجال الهجوم لأن هذا القيصر ، كما اسلفنا ، كان طامعاً في جمع شتات السلطنة الرومانية القديمة والاستيلاء على ممالكها الغربية التي تغلبت عليها القبائل الجرمانية لكن لسوء حظ الروم أصيبت دولتهم بداء عضال لم يزل يوهن منها القوى وهي لا تعالجه ويزعزع منها الأركان وهي لا تتلافاه الى أن قضى على حياتها السياسية ولهذا الداء أسباب ترجع الي أمرين جديرين بالاعتبار وهما

1 – سوء الإدارة ومنشأه الاستبداد

2 – الغلو في الدين الناتج عن جهل الراعي والرعية وتحكم سلطان الغرور والأوهام والضلالات على جميع طبقات الأمة بحيث ضربت على أبصار القوم غشاوة حالت بينهم وبين النظر في مصالحهم الحيوية

– أما سوء الإدارة فبيانه ان القياصرة كانوا على غاية الاستبداد وكانوا يتوهمون ان الله ملكهم أمر العباد ورقابهم وأموالهم ليتصرفوا فيها بما شاءوا وكما شاءوا وعلى منوالهم نسج رجال الدولة وولاة الأحكام ؛ فأخذوا يجمعون الأموال لمصالحهم الذاتية ويسخرون الرعايا لفائدتهم الشخصية؛ وبذلك فات المقصود من وجود الدولة وهو القيام بالمصالح العامة؛ وحل الصالح الخاص محل الصالح العام وذلك هو البلاء العظيم في الدول الاستبدادية قديماً أو حديثاً ، وقد كانت نتيجة تلك السياسة القبيحة في دولة الروم

اولا – تثقيل الضرائب لجمع الأموال التي يصرفها القيصر في شهواته وشهوات حاشيته

ثانياً – ظهور داء الرشوة في جميع الطبقات الادارية لان الناس على دين ملوكهم، والكل كانوا في حاجة الى المال لتمكن داء الترف من الجميع

ثالثاً – الضغط على الرعية حتى لا تشكو ظلامة

وبهذه السياسة المشئومة نفر الناس من سلطة الروم ونفور الرعية من حكامها أقوى عامل في زوال الدول اذ لا قوام لها الا بالتعاضد على المصلحة بين الحاكم والمحكوم

أما الغلو في الدين فقد بلغ فيه الروم الى حد انحلت به عرى وحدتهم القديمة ؛ فتفرقوا شيعاً وثار بينهم الخلاف في المسائل المذهبية ، وكان ابتداء ذلك من القرن الخامس بعد

المسيح حيث ظهر مذهب « المونوفزيت (Monophysites)
القائلين بتجسد الكلمة وامتزاج اللاهوت بالناسوت(1) وهو
مذهب اليعقوبية،وهم أصحاب راهب يدعى يعقوب البودغاي؛
وقد تمسك بهذا المذهب غالب الأرمن والأقباط وكان الروم
(بين ملكانية) و (اورتودكس) ينكرونه فقام بين تلك
الفرق مجادلات ومناقشات تفاقم أمرها بتداخل القياصرة
بعضهم بالانتصار الى الارتودكس مثل يوستينيانوس الذي اضطهد
المخالفين لمذهبه ، وبعضهم بالتساهل مع الخوارج وبتداخل
الدولة في تلك الخلافات المذهبية اتسع الخرق في افتراق كلمة
الروم لان انضمام ذلك الى الاستبداد وسوء الادارة ازداد به
نفور غالب الرعية من حكامها، وفشت فيها كثير من الرذائل
كالجبن والخيانة والنفاق ولاسيما كبراء الحكام ورؤساء الدين ،
وتحاسدهم وتباغضهم وتوهمهم أنهم من طينة والرعايا من طينة
اخرى ؛ فأعرضوا عن مصالح الامة وأقبلوا على التصلف
والبذخ والفخفخة والابهة الفارغة وبمجموع هذه الاسباب
انحلت عرى دولة الروم وانتشر سلكها وتداعى هيكل مجدها.
هكذا كان الروم عند ظهور الاسلام

عن « مفتاح التاريخ » لمحمد البشير
(ص. 226 - 228)

---

(1) انظر تاريخ افريقيا الشمالية للاستاذ جوليان ص 312

مراجع هذا الكتاب

1 ـ المراجع العربية

1 – « قرطاجنة في أربعة عصور » أحمد توفيق المدني – طبعة تونس 1926

2 – « المقدمة » للفيلسوف الاجتماعي عبـد الرحمان بن خلدون – طبعة مصر

3 – « كتاب العبر » لنفس المؤلف

4 – « مفتاح التاريخ » لمحمد البشير طبعة تونس 1928

5 ـ « تقويم المنصور » (السنة الخامسة) لاحمد توفيق المدني ـ سنة 1929

6 ـ « فتوح افريقيا والاندلس » لابن عبد الحكيم ـ طبعة كاربونيل الجزائر سنة 1942

7 – « هانيبال » بقلم الدكتور حسين مؤنس (مقالات عن الرسالة المصرية الغراء)

2 — المراجع الفرنسية

1 – E. F. - GAUTIER : Le Passé de l'Afrique du Nord. Ed. Payot - Paris, 1942.

2 – E. F. GAUTIER: Genséric, Roi des Vandales, Payot - Paris, 1932.

3 – A. JULIEN Histoire de l'Afrique du Nord, Payot - Paris, 1932.

4. – E. ALBERTINI, G. MARCAIS et G. YVER : l'Afrique du Nord dans l'Histoire - Ed. Archat Lyon - Paris, 1937.

5 – CAT Petite Histoire de l'Algérie, tome I. Imprimerie de l-Académie, 1889.

6 – J. BERNARD : Note sur les Aqueducs antiques de Cherchel - Bulletin de la Société Historique Algérienne No. 361 (4eme trimestre 1934).

7 M. CHRISTOFLE : Essai de restitution d'un Moulin à huile de l'époque romaine à Madaure, Ed. J. Carbonel, 1930, Alger.

8 – A. BOURGAREL – Musso : Recherches Economiques sur l'Afrique Romaine Bulletin de la Sociéié Historique Algérienne, N° . 360 et 361, (3eme et 4eme trimestres 1934).

9 – ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM; article: Les Berbères.

10 – G. DEZ et A. WELLER, l'antiquité (Rome) . Hachette, 1938. Paris.

للمؤلـــف

(1) بالعربية

1 — نصائح وإرشادات في التربية والتعليم
بالاشتراك مع عبد المالك السليماني والعربي المسعودي

2 — نصائح عملية لمعلمي المدارس القروية
بالاشتراك مع عبد المالك السليماني والعربي المسعودي
ومحمد الحجوى

3 — تاريخ الدول الإسلامية (الجزء الاول)
بالاشتراك مع محمد المهياوي

4 — الجديد في تاريخ المغرب

5 — طريقة تعليم الحساب (كتاب المعلم)
بالاشتراك مع حسين البكاري ومحمد غياتي وهنري موفري

6 — دروس الحساب لتلامذة القسم الابتدائي الاول لنفس المؤلفين

7 — دروس الحساب لتلامذة القسم الابتدائي الثاني لنفس المؤلفين

8 — التكوين المهني (خمسة أجزاء)
بالاشتراك مع محمد عبد الحميد الدميري ومحمد محي الدين المشرفي ومحمد غياتي ومحمد العالم

1 — في التربية

2 — في طرق تدريس اللغة العربية

3 — في طرق التدريس الخاصة

4 — في علم النفس

5 — في التشريع المدرسي وآداب المهنة

9 — القراءة المغربية لتلاميذ الشهادة الابتدائية
بالاشتراك مع محمد بن زيان ومساعدة محمد الطهار
والجيلالي فاصلا

(2) بالفرنسية

10 — Bien lire et comprendre
(en collaboration avec Henri Tranchart)

11 — Textes Français pour la classe d'observation
(en collaboration avec H. Tranchart)

جدول الصور والرسوم والخرائط

تتمة الجدول

موقع الرسم من هذا الكتاب (الصحيفة)	المصدر المعتمد عليه	الصحيفة
86	(افريقيا الشمالية في التاريخ) البارتيني مارس ايفار	87
89	(افريقيا الشمالية في التاريخ) البارتيني ايفار	89
41	عن (جنصريق ملك الوندال) لجوتيه	215
117	عن (جنصريق ملك الوندال) لجوتيه	73 - 72
121	عن (جنصريق ملك الوندال) لجوتيه	81 - 80
149	عن (جنصريق ملك الوندال) لجوتيه	281-280
62	عن (تاريخ الامم القديمة ، رومة) لدياز وفيلير	191
66	عن (تاريخ الامم القديمة ، رومة) لدياز وفيلير	181
93	(بحث القناطر المائية بمدينة شرشال ج. بيرار)	7 - 6
96	(بحث يتعلق برحى زيتية قديمة ترجع لعهد الرومان) كريستوفل	7
160	عن (تاريخ افريقيا الشمالية) لجوتيان	313
	جميع هذه الرسوم السابقة أعيد نسخها من قبل الرسام سعود الايوبي	

الفهرس



طبع في لبنان